﴿إِنۡ أُرِيدُ إِلَّا ٱلۡإِصۡلَٰحَ مَا ٱسۡتَطَعۡتُۚ وَمَا تَوۡفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ وَإِلَيۡهِ أُنِيبُ﴾

الإصلاح

لا يُصلِحُ آخِرَ هَذِهِ الأُمَّةِ إلاّ مَا أَصلَحَ أَوَّلَـهَا

مجلة جامعة تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

الاعتزاز بدين الإسلام

التحرير

فك الأسارى في النهي عن الاحتفال بأعياد النصارى

د/ عبد المجيد جمعة

توصيف مخطوطة «حسن التنبه لما ورد في التشبه» لنجم الدين الغَزِّي

د/ كمال قالمي

المقامة الجزائرية

محمد بوسلامة

السعر: 100 دج رقم الإيداع: 2006 . 3623 ISSN : 1112 . 6825

العدد السادس ـ ذو القعدة/ ذو الحجة 1428 هـ الموافق لـ نوفمبر/ ديسمبر 2007م



مجلة جامعة
تصدر عن دار الفضيلة للنشر والتوزيع

أيُّها القرَّاء الكرام
نرحِّب بكلِّ مقالٍ علميٍّ مفيد
ونسعَد بكلِّ نَقْدٍ هادفٍ سديدٍ.

فمجلة «**الإصلاح**»
وسيلة لنشر العلم النَّافع

العنوان:
دار الفضيلة للنشر والتوزيع
حي دوزي، قطعة (01)، رقم (06) باب الزوار ـ الجزائر
الهاتف والفاكس: 63 94 51 (021)

المراسلات:
ص ب 22 مكرر ـ 16027 ـ الجزائر

darelfadhila@maktoob.com

التوزيع:
جوال: 523404 (070)

بسم الله الرحمن الرحيم

إنَّ الحمدَ لله، نحمدُه ونَسْتَعِينُه ونَسْتَغْفِرُه، ونعوذُ باللهِ منْ شرورِ أنْفُسِنَا ومِنْ سَيِّئَاتِ أعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللهُ فلا مُضِلَّ لَهُ، ومَنْ يُضْلِلْ فلا هَادِيَ له.

وأشْهَدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللهُ وحدَه لا شريكَ له، وأشهدُ أنَّ محمَّدًا عبدُه ورسولُه.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ ١٠٢﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا ١﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا ٧١﴾ [الأحزاب: ٧٠ـ٧١].

أمَّا بَعْدُ:

فإنَّ خيرَ الحديثِ كتابُ الله، وأحسنَ الهَدْيِ هَدْيُ محمَّدٍ ﷺ، وشَرَّ الأمورِ مُحْدَثَاتُهَا، وكُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وكلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّارِ.

اقرأ في هذا العدد...



الاعتزاز بدين الإسلام

التحرير

الحمد لله ذي العزَّة والعَلاء، والعَظمة والكبرياء، والصَّلاة والسَّلام على النَّبيِّ المختار الَّذي بشَّر أمَّته بالنَّصر والتَّمكين والرِّفعة والسَّناء، وبعد:

إنَّ من المسلَّمات في عقيدة المسلم أنَّ العزَّة بيد الله وحده يُعزُّ من يشاء، ويذلُّ من يشاء، وأنَّها لا تُنال إلاَّ بفضلِه ومَنِّه، ومَن أرادَها فعليه بطاعتِه عزَّ وجلَّ؛ فإنَّها سببُ العزَّة والكَرامة والسُّؤدَد، قال تعالى: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّـٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ ۚ وَٱلَّذِينَ يَمْكُرُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾، قال العلماء: «إنَّ المطيعَ لله عزيزٌ، وإن كان فقيرًا ليس له أعوانٌ»، وقد عاتَب اللهُ تعالى في كتابه الكَريم مَن حاولَ نَيل العِزَّة مِن عندِ غَيره فقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّخِذُونَ ٱلْكَـٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ أَيَبْتَغُونَ عِندَهُمُ ٱلْعِزَّةَ فَإِنَّ ٱلْعِزَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا ﴿١٣٩﴾﴾، فله سبحانه العزَّة الكاملة المطلقة بأنواعها الثَّلاث: عزَّة القوَّة، وعزَّة الغلبة، وعزَّة الامتناع.

فَمن أراد أن يعيشَ عزيزًا غيرَ ذليلٍ، فليُكرِمْ نفسَه بطاعةِ الله تَعالى واتِّباع رسولِه ﷺ، ففي «المسند» وغيره بسند حسن قال ﷺ: «**وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي**».

وبقدر طاعة العبد لربِّه، واتِّباعه لسُنَّة نبيِّه ﷺ تكون رفعته وعزَّته، فالعزَّة لمن آمن بالله واتَّبع الرَّسول ﷺ، قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨﴾﴾.

وليَعلم القارئ اللَّبيب أنَّ العزَّة الَّتي نتحدَّث عنها في هذا المقام ليس العزَّة المادِّيَّة الَّتي تتمثَّل في العُدَّة والعَدَد كما قال الشَّاعر الجاهلي:

ولستُ بالأكثر منهم حَصًى
وإنَّما العِزَّةُ للكَاثِرِ

إنَّما نريد العزَّة المعنويَّة الرُّوحيَّة وهي شعور يرسخ في نفس المؤمن الصَّادق ليسموَ به عاليًا، ولا يشعر معه بالهوان ولا بالذِّلة أبدًا حيثما كان.

وهذا الشُّعور يتأتَّى من قوَّة العلمِ والإيمان، ومعرفةِ فضلِ دين الإسلام على غيرِه من الأديان،

وأنَّه الدِّين الَّذي لا يقبل الله تعالى غيره، فالله جلَّ ذكره يقول: ﴿إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، ويقول أيضا: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾.

فمَن تحقَّقت له الهداية لهذا الدِّين كانَ عليه أن يشهد منَّة الله عليه وأن يعتزَّ أيَّما اعتزاز بما هو عليه؛ وأن يقتدي بهؤلاء الصَّحابة الكرام الَّذين عاشوا الجاهلية والإسلام، فأدركوا الفرق بينهما، وعرفوا قدر النِّعمة الَّتي انقلبوا إليها، فاستغنوا بالإسلام وعاشوا معتزِّين به مفتخرين، ولم يبتغوا العزَّة في غيره أبدًا، روى الحاكم في «المستدرك» (١/ ٦١) عن طارق بن شهاب قال: «خرج عمر بن الخطَّاب إلى الشَّام ومعنا أبو عبيدة ابن الجرَّاح، فأتوا على مَخَاضَة وعمر على ناقةٍ، فنزل عنها وخلع خفَّيه فوضعهما على عاتقه وأخذ بزمام ناقته فخاض بها المخاضة؛ فقال أبو عبيدة: يا أمير المؤمنين! أأنت تفعل هذا؟ تخلع خفَّيك وتضعهما على عاتقك وتأخذ بزمام ناقتك وتخوض بها المخاضة؟ ما يسرُّني أنَّ أهل البلد استشرفوك! فقال عمر: أوه! لو يقُلْ ذا غيرُك أبا عُبيدة جعلتُه نكالاً لأمَّة محمد ﷺ! **إنَّا كنَّا أذلَّ قومٍ فأعزَّنا الله بالإسلام، فمَهما نَطْلُب العِزَّ بغيرِ ما أعزَّنا اللهُ به أذلَّنا الله**» [صححه الألباني في «الصحيحة» (١/ ١١٧)].

فليست العزَّة عند عمر رضي الله عنه في حسن المظهر والثِّياب والأبَّهة، إنَّما هي شيء آخر، وقد صدق المثل القائل: «ليست العزَّة في حُسن البَزَّة».

فهذه العبارة الصَّريحةُ الواضحةُ المؤثِّرةُ الَّتي نَطق بها الفَاروق رضي الله عنه تُغني عن كلِّ تَعبير آخر، وتعطي معادلة ثابتة للعلاقة الوثيقة بين حال الأمَّةِ عزًّا وذلاًّ مع مَوقِفِها من دينِها تمسُّكًا ونُفورًا، فما عزَّت الأُمَّة إلاَّ لَّما تمسَّكَت بدِينها أصُولاً وفُروعًا، ولا ذلَّت إلاَّ يومَ عَزفتْ عنهُ، واستبدلت به مناهجَ علمانيَّة لادينيَّة، وفلسفاتٍ غربيَّة كُفريَّة، أذابت كثيرًا من معالم شخصيَّتنا وهزَّت كثيرًا من مقوِّماتنا، وأفسدَتْ علَينا دينَنَا ولُغتنَا وأخلاقَنا، باسم مواكبة الحضارة ومُسايَرة العصر والتَّطور وغيرها من الأسماء البرَّاقة الخدَّاعة.

وأوهَمَنا الغرب وعلى لسان بعض من ينتسب إلى الإسلام أنَّنا لا نستطيع الولوج إلى عالم الحضارة والرُّقيِّ إلاَّ بالتَّخلِّي عن أصالتنا، والانفصال عن ماضينا، وأن نلبس لباس التَّبعيَّة العمياء والتَّقليد الأعمى، وأنْ نذوب في هذه الحضارة ونتميَّع، وأرادوا أن يضربوا بسور من حديد بين الأصالة والمعاصرة، وانساق وراء هذه الفكرة الخبيثة كثير من «الإنهزاميين»، فلم يعد الدِّين عندهم سوى طقوسًا يمارسها الفرد في حدود ضيِّقة، وأوقات معيَّنة، وأنَّه لا دخل للدِّين في سائر أمور الحياة، وهذا جهل عظيم بحسن كمال الإسلام الَّذي جعله الله تعالى صالحًا مصلحًا لكلِّ زمان ومكان، وأنَّه من السَّهل جدًّا أن تجمع الأمَّة بين الأصالة والمعاصرة لو كانوا يعقلون.



من فضائل سورة الإخلاص

عز الدين رمضاني

إنَّ الله أنزل كتابه العظيم على نبيه الكريم هدى ورحمة ونورا وشفاء وبشرى وذكرى للذاكرين، ووصفه بأوصاف جليلة، ونعته بنعوت حسنة جميلة، تدل على أنه الأصل والأساس لجميع العلوم النافعة، والمعارف المرشدة لخيري الدنيا والآخرة.

فهذه سورة العصر على وجازتها وقصر آياتها تضمنت التعريف بسبيل أهل الصلاح والإيمان، والتمييز بينها وبين سبيل أهل الزيغ والخسران، بأوجز العبارات وأدلها على المقصود، حتى قال الشافعي: «لو لم ينزل الله غيرها لكفت الناس»، وهذه آية النحل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ﴾ [النحل: ٩٠] جمعت الأخلاق الفاضلة المهذبة للنفوس، الهادية للقلوب، وحذرت من موبقات الشرور المهلكة للنفوس المدمرة للأمم والشعوب، وهذه سورة الفاتحة جمعت بين دفتيها علوما جمة وافرة، ومعارف باطنة وظاهرة، وفوائد نفيسة باهرة، وأصولا نقية زاهرة.

ومن سور القرآن التي حوت جلَّ هذه الشمائل، وانفردت بكثرة الفضائل، وسمت على مثيلاتها بأقوى الدلائل، المعرِّفة بالخالق المعبود بأوجز لفظ وأدلِّه على مقصود القائل، **سورة الإخلاص**؛ فإنَّ الناس مكثرون من تلاوة هذه السورة غالب الأحوال، حتى جرت على ألسنتهم مجرى الأمثال، لسهولة حفظها وعذوبة ألفاظها وجلال معانيها، فمنهم العارف معناها ـ وقليل ما هم ـ، ومنهم الجاهل بحقيقتها وعظيم فضلها ونفعها وهم السواد الأعظم.

ومما يدل على فضل هذه السورة كثرة أسمائها وكثرة الأسماء تدل على شرف المسمى، وهي نحو عشرين اسما، تصب كلها في فلك التوحيد ومعرفة حق الله على العبيد، والرد على عبَّاد الأصنام والأوثان والقائلين بالثنوية والتثليث وجميع الأديان الباطلة.

وأشهر أسمائها: «الإخلاص»، وسمِّيت بذلك؛ لأنَّ في قراءتها خلاصا من عذاب الله، أو لأنَّ فيها إخلاصا لله من كل عيب ومن كل شريك، أو لأنَّها خالصة لله ليس فيها أمر ولا نهي، وقيل: سميت بالإخلاص لأنَّها أخلصت التوحيد لله، أو لأنَّ قارئها وتاليها قد أخلص دينه لله.

ومن أسمائها: «قل هو الله أحد»، وقد بوب البخاري في «الصحيح» باب فضل «قل هو الله أحد»؛ ومن أسمائها: التوحيد، والأساس؛ لأن التوحيد أصل لسائر أصول الدين، ومن أسمائها: التَّفريد والتَّجريد والنَّجاة والولاية والمعرفة ـ لأنَّ معرفة الله إنما تتمُّ بمعرفة ما فيها ـ والنِّسبة والصَّمد والمعوِّذة والمانعة والمذكِّرة والنُّور والإيمان والمُقَشْقِشة والمعولة والبراءة.

وأما فضائل هذه السورة فكثيرة، وفوائدها عزيزة، حتى قال الأئمة الأعلام كالدَّارقطني وابن القيِّم: «لم يصح في فضائل سورة مما صح في سورة «قل هو الله أحد»».

فهي نسبة الله عز وجل والمعرفة به جل وعلا، فمن أراد معرفة ربه ونسبه وصفته فليقرأ هذه السورة، فعن أبي بن كعب: أنَّ المشركين قالوا للنبي ﷺ: يا محمَّد انسب لنا ربك، فأنزل الله تبارك وتعالى «قل هو الله أحد»[(1)].

وهي صفة الرحمن ونعته، فمن رام وصفا لخالقه يليق بكماله وجلاله، وعزته وعظيم سلطانه، فليقرأ هذه السورة الكريمة، ففي «الصحيحين»[(2)] عن عائشة أن النبي ﷺ «بعث رجلا على سرية فكان يقرأ لأصحابه في صلاتهم فيختم بـ «قل هو الله أحد» فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ» فقال: «**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ**»، فسألوه فقال: لأنها صفة الرحمن وأنا أحب أن أقرأ بها، فقال النبي ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**»، قال ابن التين: «وقوله: لأنها صفة الرحمن لأن فيها أسماءه وصفاته، وأسماؤه مشتقة من أوصافه».

ومن فضائلها: أنَّ حبَّ هذه السورة والقراءة بها في الصلاة يوجب محبة الله لمن قرأ بها، لقوله في الحديث: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**»، وفي هذا دليل على



أن سلامة المعتقد وحسن فهم التوحيد من أعظم أسباب محبة الله لعباده، وفيه دليل أيضا على استحباب قراءة الآيات التي تشمل على صفات الله خلافا للمبتدعة الذين يكرهون قراءة آيات الصفات عند العامة.

- إنَّ حبَّها يوجب دخول الجنة، فقد روى البخاري معلَّقا في «صحيحه» (٧٧٤) ووصله الترمذي (٢٩٠١) عن أنس قال: «كان رجل من الأنصار يؤمهم في مسجد قباء، وكان كلما افتتح سورة يقرأ بها لهم في الصلاة مما يقرأ به افتتح بـ «قل هو الله أحد» حتى يفرغ منها، ثم يقرأ بسورة أخرى معها، وكان يصنع ذلك في كل ركعة، فكلمه أصحابه فقالوا: إنك تفتتح بهذه السورة ثم لا ترى أنها تجزئك حتى تقرأ بأخرى، فإما أن تقرأ بها وإما أن تدعها وتقرأ بأخرى، فقال: ما أنا بتاركها، إن أحببتم أن أؤمكم بذلك فعلت وإن كرهتم تركتكم، وكانوا يرون أنه من أفضلهم وكرهوا أن يؤمهم غيره، فلما أتاهم النبي ﷺ أخبروه الخبر، فقال: «**يَا فُلَانُ! مَا يَمْنَعُكَ أَنْ تَفْعَلَ مَا يَأْمُرُكَ بِهِ أَصْحَابُكَ، وَمَا يَحْمِلُكَ عَلَى لُزُومِ هَذِهِ السُّورَةِ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ؟**» فقال: إنِّي أحبها، فقال: «**حُبُّكَ إِيَّاهَا أَدْخَلَكَ الجَنَّةَ**».

وروى مالك (٤٣٥) والترمذي (٢٨٩٧) والنسائي (٩٩٤) بإسناد صحيح عن أبي هريرة يقول: «أقبلت مع النبي ﷺ فسمع رجلا يقرأ «قل هو الله أحد» فقال رسول الله ﷺ: «**وَجَبَتْ**»، قلت: وما وجبت؟ قال: «**الجَنَّةُ**».

وروى أحمد (٥/ ٤٣٧) بإسناد حسن عن معاذ بن أنس عن النبي ﷺ قال: «**مَنْ قَرَأَ «قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» حَتَّى يَخْتِمَهَا عَشر مَرَّاتٍ بَنَى اللهُ لَهُ قَصْرًا فِي الجَنَّةِ**».

- إنَّ قراءتها توجب مغفرة الذنوب، فقد روى الدارمي (٣٢٩٢) والنسائي في «عمل اليوم والليلة» (٧٠٤) بإسناد صحيح عن رجل من الصحابة يقول: «صحبت رسول الله ﷺ في سفر، فسمع رجلا يقرأ ﴿**قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ١**﴾ فقال: «**قَدْ بَرِئَ مِنَ الشِّرْكِ**»، وسمع آخر يقول: ﴿**قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ١**﴾ فقال: «**غُفِرَ لَهُ**».

- إنَّها تكفي من الشَّر وتمنعه، لما ثبت في «السنن»[٣] إلا ابن ماجة عن عبد الله بن خبيب قال: «خرجنا في ليلة مطر نطلب النبي ﷺ ليصلي لنا فأدركناه، فقال: «**قُلْ!**» فلم أقل شيئا، ثم قال: «**قُلْ!**» فلم أقل شيئًا، ثم قلت: يا رسول الله ما

أقول؟ قال: «**﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾ وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ حِينَ تُمْسِي وَحِينَ تُصْبِحُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ تَكْفِيكَ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ**».

ـ إنَّ الدُّعاء بها مستجاب، ففي «السنن» و«مستدرك الحاكم» بإسناد صحيح عن عبد الله ابن بريدة عن أبيه أنَّ النبي ﷺ سمع رجلا يصلي يدعو يقول: «اللهمَّ إني أسألك بأني أشهد أن لا إله إلا أنت، الأحد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» قال: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ سَأَلَهُ بِاسْمِهِ الأَعْظَمِ الَّذِي إِذَا سُئِلَ بِهِ أَعْطَى وَإِذَا دُعِيَ بِهِ أَجَابَ**»[٤].

وفي «المسند»، و«سنن أبي داود» عن محجن ابن الأدرع أنَّ النبي ﷺ دخل المسجد فإذا برجل قد قضى صلاته وهو يتشهَّد وهو يقول: «اللَّهم إني أسألك بأنك الواحد الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، أن تغفر لي ذنوبي إنك أنت الغفور الرحيم»، فقال نبي الله ﷺ ثلاث مرات: «**قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ، قَدْ غُفِرَ لَهُ**»[٥].

ـ إنَّها تضمنت الرد على اليهود والنصارى والمشركين وهي حجة الله على خلقه، حتى قال السيوطي في «الإكليل»: «فيها الرد على اليهود والنصارى والمجوس والمشركين والمجسمة والمشبهة والحلولية والاتحادية وجميع الأديان الباطلة»، ويدل على هذا ما رواه البخاري في «صحيحه» (٤٩٧٤) عن أبي هريرة عن النبي ﷺ عن ربه: «**كَذَّبَنِي ابْنُ آدَمَ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، وَشَتَمَنِي وَلَمْ يَكُنْ لَهُ ذَلِكَ، فَأَمَّا تَكْذِيبُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: لَنْ يُعِيدَنِي كَمَا بَدَأَنِي، وَلَيْسَ أَوَّلُ الخَلْقِ بِأَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ إِعَادَتِهِ، وَأَمَّا شَتْمُهُ إِيَّايَ فَقَوْلُهُ: اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا وَأَنَا الأَحَدُ الصَّمَدُ لَمْ أَلِدْ وَلَمْ أُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لِي كُفُوًا أَحَدٌ**».

ـ إنَّها من أفضل سور القرآن ليس لها مثيل ولا شبيه في كتب الله المنزلة على رسله، يبين ذلك ما رواه أحمد (١٧٤٦٧) بإسناد صحيح عن عقبة بن عامر قال: «لقيت رسول الله ﷺ فقال لي: «**يَا عُقْبَةَ بْن عَامِرٍ! صِلْ مَنْ قَطَعَكَ، وَأَعْطِ مَنْ حَرَمَكَ، وَاعْفُ عَمَّنْ ظَلَمَكَ**»، قال: ثم أتيت رسول الله ﷺ فقال لي: «**يَا عُقْبَةَ بْن عَامِرٍ! أَمْلِكْ عَلَيْكَ لِسَانَكَ، وَابْكِ عَلَى خَطِيئَتِكَ، وَلْيَسَعْكَ بَيْتُكَ**»، قال: ثم لقيت رسول الله ﷺ فقال: «**يَا عُقْبَةَ بْن عَامِرٍ أَلَا أُعَلِّمُكَ سُوَرًا مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهُنَّ! لَا يَأْتِيَنَّ عَلَيْكَ لَيْلَةٌ إِلَّا قَرَأْتَهُنَّ فِيهَا: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾**»، قال عقبة: فما أتت علي



ليلة إلا قرأتهن فيها، وحق لي أن لا أدعهن وقد أمرني بهن رسول الله ﷺ.

ـ وإنَّ من أعظم فضائل الإخلاص بحيث لا تشاركها ولا تقاربها ولا تنافسها سورة أخرى في هذا الفضل كونها تعدل ثلث القرآن، أي أن قارئها له فضل وثواب من قرأ عشرة أجزاء من القرآن، علما أن كل حرف في القرآن بحسنة، وقد جاءت أحاديث صحيحة في إثبات هذا الفضل بلغت مبلغ التواتر كما يقول ابن القيم وغيره من العلماء.

فمن ذلك ما رواه البخاري في «صحيحه» (٥٠١٤) من حديث أبي سعيد الخدري أن: «رجلا سمع رجلا يقرأ: «قل هو الله أحد» يرددها، فلما أصبح جاء إلى النبي ﷺ فذكر ذلك له ـ وكأنَّ الرجل يتقالُّها ـ فقال رسول الله ﷺ: «**وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ**».

ومن ذلك ما رواه البخاري (٥٠١٥) عن أبي سعيد قال: قال رسول الله ﷺ لأصحابه: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ ثُلُثَ الْقُرْآنِ فِي لَيْلَةٍ؟**» فشق ذلك عليهم وقالوا: أيُّنا يطيق ذلك يا رسول الله؟ فقال: «**اللهُ الْوَاحِدُ الصَّمَدُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ**».

ومن ذلك ما رواه مسلم (٨١١) عن أبي الدرداء أن رسول الله ﷺ قال: «**أَيَعْجِزُ أَحَدُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ كُلَّ يَوْمٍ ثُلُثَ الْقُرْآنِ؟**» قالوا: نعم، قال: «**إِنَّ اللهَ جَزَّأَ الْقُرْآنَ ثَلَاثَةَ أَجْزَاء، فَـ«قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ» ثُلُثُ الْقُرْآنِ**».

ومعنى هذه الأحاديث أن سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن في الجزاء لا في الإجزاء؛ لأنَّه لا يلزم من المعادلة في الجزاء المعادلة في الإجزاء، ومن أمثلة هذه القاعدة ما ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: «**مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ عَشرَ مَرَّاتٍ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ**»[٦]، فهل يجزئ ذلك عن إعتاق أربع رقاب ممن وجب عليه ذلك وقال هذا الذكر عشر مرات؟ الجواب: لا يجزئ، أمَّا في الجزاء فتعدل، ولذلك قال شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «تعدل ثواب ثلث القرآن في القدر، فلا يجب أن يكون مثله في النوع والصفة».

وأما السبب الذي من أجله عدلت ثلث القرآن فقد أجاب العلماء على ذلك بأجوبة كثيرة، أحسنها قول من قال: إن القرآن على أثلاث ـ أي ثلاثة أنواع من المباحث ـ فهو إما خبر عن الله، أو خبر عن مخلوقاته، أو أحكام، أما الخبر عن الله فسورة الإخلاص تتضمنه لما فيها من التعريف بالله وأسمائه وصفاته وتنزيهه عن العيوب والنقائص،

وهذا يشمله علم التوحيد وهو أشرف الثلاثة ويتجلى في هذه السورة، وإما خبر عن مخلوقاته كالإخبار عن الأمم السابقة والإخبار عن الحوادث الحاضرة والمستقبلة، وإما أحكام وهي الأوامر والنواهي المتضمنة للأحكام والشرائع العملية كالأمر بإقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، والنهي عن الربا والزنا وغير ذلك.

فلأجل ذلك كان النبي ﷺ يؤثر قراءة هذه السورة على غيرها في الصلاة وفي غير مواطن الصلاة.

أما الصلاة فكان يقرأ بها في الركعة الثانية من سنة الفجر، وكان يقول عنها وعن سورة الكافرون: «**نِعْمَ السُّورَتَانِ هُمَا**»[7]، وأخرج ابن حبان في «صحيحه» (٢٤٦٠): باب «ذكر إثبات الإيمان لمن قرأ سورة الإخلاص في ركعتي الفجر» وساق بسنده إلى جابر بن عبد الله أن رجلا قام فركع ركعتي الفجر، فقرأ في الركعة الأولى: «قل يا أيها الكافرون»، فقال النبي ﷺ: «**هَذَا عَبْدٌ عَرَفَ رَبَّهُ**»، وقرأ في الأخرى: «قل هو الله أحد» حتى انقضت السورة، فقال النبي ﷺ: «**هَذَا عَبْدٌ آمن بِرَبِّهِ**».

وكان يقرأ بها وبـ «الكافرون» في سنة المغرب البعدية، كما كان يقرأها في الوتر وحدَها، ويضيف إليها أحيانا «قل أعوذ برب الفلق» و«قل أعوذ برب الناس»، وقد أشار إلى الحكمة في كل هذا شيخ الإسلام حيث قال: «سنة الفجر تجري مجرى بداية العمل، والوتر خاتمته، ولذلك كان يصلي سنة الفجر والوتر بسورة الإخلاص، وهما الجامعتان لتوحيد العلم والعمل، وتوحيد المعرفة والإرادة وتوحيد الاعتقاد والقصد».

كما كان يقرأ بها وبسورة الكافرون في ركعتي الطواف خلف مقام إبراهيم عليه السلام إشارة إلى التوحيد الذي نادى به شيخ الأنبياء وثبَّت أركانه إمام المرسلين إلى يوم الدين ﷺ.

وكان يقرأ بها وبالمعوذتين دبر كل صلاة، وفي أذكار الصباح والمساء، وعند إيوائه إلى فراشه حيث يجمع يديه ويقرأ فيهما بالإخلاص والمعوذتين ثم ينفث فيهما ويمسح بهما سائر جسده، يفعل ذلك ثلاث مرات، وعند مرضه كان يقرأ بها وينفث في يديه ويمسح بهما رجاء بركتها.

فبهذه الفضائل والبركات، ولهذه الدلائل والخيرات كان النبي ﷺ يكثر من قراءتها ويتعهدها في كثير من الأعمال والأحوال، وعلى ذلك الهدي



الأَنْوَر، والسبيل الأَخْيَر، سار خيار هذه الأمة يتلونها حقَّ تلاوتها، ويتفهَّمونها حقَّ فهمها، ويتمثَّلون بها أحسن تمثيل، ويبجلونها أعظم تبجيل، حتى إنَّها ما تغيب عن أذهانهم ولا تتعثر ألسنتهم في ضرب الأمثال بها والاحتجاج بها على الخصوم، ومن طريف ما يذكر في هذا الباب ما رواه الذهبي في السير عن أحمد بن حمدون يقول: «رأيت محمد بن إسماعيل في جنازة سعيد ابن مروان، ومحمد بن يحيى الذهلي يسأله على الأسامي والكنى والعلل، ومحمد بن إسماعيل يمر فيه مثل السهم، كأنه يقرأ: «قل هو الله أحد»»[8].

وسئل أبو زرعة عن رجل حلف بالطلاق أن أبا زرعة يحفظ مئتي ألف حديث، هل حنث؟ فقال له أبو زرعة: أحفظ مئتي ألف حديث كما يحفظ الإنسان «قل هو الله أحد» وفي المذاكرة ثلاث مئة ألف حديث[9]، وقال حماد بن سلمة: «إن دعاك الأمير لتقرأ عليه «قل هو الله أحد فلا تأته»[10]، فسورة هذه أسماؤها وتلك معانيها وفضائلها جدير بكل مسلم أن ينفق ساعات عمره في طلب خيراتها والاهتداء بأنوارها والوقوف على كنوزها، اللهم بارك لنا في القرآن العظيم، وانفعنا بما فيه من الآيات والذكر الحكيم، إنك ولي ذلك والقادر عليه وصلى الله وسلم على نبيه الكريم.

---

(١) أحمد والترمذي والحاكم بإسناد حسن.
(٢) البخاري (٧٣٧٥)، مسلم (٨١٣).
(٣) أبو داود (٥٠٨٢)، النسائي (٥٤٢٨)، الترمذي (٣٥٧٥).
(٤) أبو داود (١٤٩٣)، والنسائي في «الكبرى» (٤/ ٣٩٤-٣٩٥)، والترمذي (٣٤٧٥)، وابن ماجه (٣٨٥٧)، والحاكم (١/ ٦٨٤)، وابن حبان (٢٣٨٣).
(٥) أحمد (١٨٩٩٥)، وأبو داود (٩٨٧).
(٦) رواه مسلم (٢٦٩٣).
(٧) رواه أحمد (٢٦٥٥٠).
(٨) «سير أعلام النبلاء» (١٢/ ٤٣٢).
(٩) «سير أعلام النبلاء» (١٣/ ٦٨).
(١٠) «سير أعلام النبلاء» (٧/ ٤٤٨).

حديث: «من تشبَّه بقوم فهو منهم»

(رواية ودراية)

توفيق عمروني

أخرج الإمام أحمد في «مسنده» (٥١١٤، ٥١١٥، ٥٦٦٧)، وأبوداود في «سننه» (٤٠٣١)، وابن أبي شيبة (٤/ ٥٧٥)، وعبد بن حميد في «مسنده» (٨٤٨)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (١١٩٩)، والطبراني في «مسند الشَّاميِّين» (٢١٦)، والطَّحاوي في «مشكل الآثار» (١/ ١٢٥)، وابن عبد البر في «التمهيد» (١١/ ٧٦)، وتمام في «فوائده» (٧٧٠)، وابن الأعرابي في «معجمه» (١١٣٧)، والدينوري في «المجالسة» (١٤٧) من طُرُقٍ عن أَبي النَّضْرِ، حدَّثنا عَبدُ الرَّحمنِ بنُ ثَابِتٍ، حدَّثنا حسَّانُ بن عَطِيَّةَ عن أبي مُنِيبٍ الجُرَشِيِّ عن ابنِ عمرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: **«بُعِثْتُ بِالسَّيْفِ حَتَّى يُعْبَدَ اللهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَجُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمْحِي، وَجُعِلَ الذِّلَّةُ وَالصَّغَارُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي؛ وَمَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»**.

صحَّح إسناده العراقي في «تخريجه للإحياء» (٨٥١)، وجوَّد إسناده شيخ الإسلام ابن تيميَّة في «الاقتضاء» (ص٢٦٩)، وقال الذَّهبي في «السِّير» (١٥/ ٥٠٩): «إسناده صالح»، كما حسَّن إسناده الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١٠/ ٢٧١)، والألباني في «الإرواء» (١٢٦٩).

ومن ضعَّف إسنادَه من العلماء كالسَّخاوي في «المقاصد الحسنة» (١١٠١)، والزَّركشي في «التَّذكرة» (ص١٠١) وغيرهما فلأجل عَبْدِ الرَّحْمَنِ ابن ثَابت بن ثَوْبَانٍ؛ لأنَّهم اختلفوا في تَوْثِيقِهِ؛ إلَّا أنَّه لم ينفرد بل تابعه الأوزاعيُّ، أخرجه الطَّحاوي في «شرح مشكل الآثار» (١/ ٢١٣)، وأحمد بن حذلم في «حديث الأوزاعي» (٣٠) من طريق جمع من الثِّقات عن الوليد بن مُسْلِمٍ ثنا الأوزَاعِيّ به.



ثمَّ خالفَهُما صَدَقة بن عبد الله، فرواه عنِ الأوزاعِيِّ، عن يحيى بنِ أبِي كثِيرٍ، عن أبِي سلمة، عن أبِي هُريرة، عنِ النّبيِّ ﷺ به.

أخرجه البزَّار في «مسنده» ـ كما في «نصب الرَّاية» (٤/ ٤٠٣) ـ، والهرويُّ في «ذمِّ الكلام» (٤٦٥)، والذَّهبي في «سير النُّبلاء» (١٦/ ٢٤٢)، من طريق عمرو بن أبِي سلمة، عن صدقة بنِ عَبدِ الله نحوه.

قلت: هذا الإسناد منكر؛ لأنّ صَدَقة بن عبد الله السَّمِين هو من علماء دمشق في زمانه إلَّا أنَّه ضعيف؛ وقال البزَّار: «لم يُتابع صَدقة على روايته هذه، وغَيرُه يرويه عن الأوزاعي مرسَلًا».

لذا قال دُحَيم كما نقل عنه أبو حاتم الرَّازي: «هذا الحدِيثُ ليس بِشيءٍ، الحدِيثُ حدِيثُ الأوزاعِي، عن سعِيد بنِ جبلة، عن طاوُسٍ، عنِ النّبِيِّ ﷺ»[1].

وأمَّا الدَّارقطني، فقد رجَّح روايةَ الوليد ابن مسلم عن الأوزاعي عن حسَّان بن عطيَّة عن أبي مُنيب الجُرشي عن ابن عمر؛ قال: «وهو الصَّحيح»[2].

وروي هذا الحديث عن غير ابن عمر، فروي عن حذيفة بن اليمان، وعن أنس بن مالك، وجاء مرسلًا عن طاوس وعن الحسن البصري؛ فإليكها بتفصيل:

ـ حديث حذيفة بن اليمان:

أخرجه الطَّبراني في «الأوسط» (٨٣٢٧)، والبزَّار في «مسنده» (٢٩٦٦) من طريق ثنا محمَّد ابن مرزوق، نا عبد العزيز بن الخطَّاب، ثنا علي ابن غراب، عن هشام بن حسان، عن محمَّد بن سيرين، عن أبي عبيدة بن حذيفة، عن أبيه، أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**».

قال الطَّبراني: «لم يروِ هذا الحديث عن هشام ابن حسان إلَّا علي بن غراب، ولا عن علي إلَّا عبد العزيز، تفرَّد به محمَّد بن مرزوق».

قال البزَّار: «وَهَذَا الحَدِيثُ لا نَعلَمُهُ يُرْوَى عن حُذيفَةَ مُسنَدًا إلَّا من هَذَا الوَجهِ، وقد رَوَاهُ غيرُ عليِّ بن غُرَابٍ، عَنْ هِشَامٍ، عَنْ مُحَمَّدٍ، عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ، عَنْ أَبِيهِ مَوْقُوفًا».

قال الهيثمي في «مجمع الزَّوائد»: «رواه الطَّبراني في «الأوسط» وفيه علي بن غراب، وقد وثَّقه غيرُ واحدٍ وضعَّفه بعضهم، وبقيَّة رجاله ثقات».

وعليُّ بن غراب، الظَّاهر من حاله على تشيُّعه فهو صدوق يمكن الاعتبار بحديثه، إلا أنّه يدلِّس، فليس من السَّهل قَبول تفرُّده؛ بله إذا خولف كما أشار إلى ذلك البزار آنفا.

قلت: وقد وَرد مُسنَدًا من وجهٍ آخر عن حذيفة ﷺ، ففي «مسند الشَّاميِّين» للطَّبراني (١٨٦٢): حدَّثنا عمرو بن إسحاق، ثنا أبي ثنا عمرو ابن الحارث، ثنا عبد الله بن سالم عن الزّبيدي، ثنا نمير ابن أوس أنَّ حذيفة بن اليمان ﷺ كان يردُّه إلى رسول الله ﷺ قال: **«مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ»**.

الزّبيدي هو محمَّد بن الوليد شاميٌّ ثِقةٌ ثَبْتٌ.

قلتُ: وهذا إسناد حمصي شامي ضعيف جدًّا، وآفته والد شيخ الطَّبراني إسحاق بن إبراهيم ابن العلاء الزّبيدي المعروف بابن زِبْرِيق، قال عنه الحافظ في «التقريب»: «صدوق يهم كثيرا، وأطلق محمد بن عوف أنه يكذب»[٣]، فلعل هذا الحديث من أوهامه، فإنَّه تفرَّد به ولم يتابع.

وعلَّةٌ أخرى أنَّ أوس بن نمير عن حذيفة مرسل.

ـ حديث أنس بن مالك:

أخرجه أبو نعيم في «تاريخ أصبهان» (١/ ١٦٥)، والهروي في «ذمِّ الكلام» (٤٦٦).

من طريق الحجَّاج بن يوسف بن قتيبة ثنا بشر ابن الحسين الأصبهاني، ثنا الزّبير بن عدي عن أنس ابن مالك قال: قال رسول الله ﷺ؛ فذكره.

قلت: وهذا إسناد واه جدًّا لأجل بشر ابن الحسين له نسخة عن الزّبير بن عدي؛ قال البخاري: «فيه نظر»، وقال الدارقطني: «متروك»، وقال ابن عدي: «عامة حديثه ليس بمحفوظ»، وقال أبو حاتم: «يكذب على الزبير».

وقد صدق ابن حبان لما قال عنه: «لا يُنظر في شيء رواه عن الزّبير إلَّا على جهة التَّعجُّب».

ـ وجاء مرسلًا عن طاوس:

أخرجه عبد الله بن المبارك في «الجهاد» (١٠٥)، وابن أبي شيبة في «المصنف» (٤/ ٥٨١) (٧/ ٦٣٨)، والقضاعي في «مسند الشهاب» (٣٩٠)

من طُرق عن الأوزاعي عن سعيد بن جَبَلة، قال: حدثني طاوس، قال: قال رسول الله ﷺ؛ فذكره.

وسعيد بن جَبلة ترجمه ابن أبي حاتم في كتابه، ولم يذكر فيه جرحا ولا تعديلا.

وحسَّن هذا الإسناد الحافظ في «الفتح» (٦/ ٩٨)، وفي «تغليق التَّعليق» (٣/ ٤٤٦) وجعله شاهدًا لحديث ابن عمر المتقدِّم.

ـ وجاء مرسلًا عن الحسن البصري:

أخرجه سعيد بن منصور في «سننه» (٢٣٧٠) قال: نا إسماعيل بن عياش، عن أبي عمير الصوري، عن الحسن، قال قال رسول الله ﷺ؛ فذكره.



قلت: وهذا إسناد ضعيف، قال الحافظ: «كانوا لا يعتمدون مراسيل الحسن؛ لأنَّه كان يأخذ عن كلِّ أحد»، قال الإمام أحمد: «ليس في المرسلات شيءٌ أضعف من مرسلات الحسن».

وأبو عُمير الصُّوري اسمه أبان بن سليمان، «كان من عباد الله الصالحين، يتكلم بالحكمة»

ـ وقد ورد لفظ هذا الحديث عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه موقوفا عنه:

أخرجه عبد الرَّزَّاق في «المصنَّف» (٢٠٩٨٦) عن معمر عن قتادة: أنَّ عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رجلًا قد حلَقَ قَفاه ولبس حريرًا، فقال: «**مَنْ تَشَبَّه بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**».

قلت: قتادة لم يدرك عمر بن الخطاب، فالإسناد منقطع؛ والله أعلم.

ـ فقه الحديث ـ

فهذا النَّصُّ النَّبويُّ يشير إلى أصل في الشَّريعة عظيم، وهو النَّهي عن التَّشبُّه بغير المسلمين، فلا يجوز التَّشبُّه بالكفَّار والمنافقين والمبتدعة والعصاة والفسَّاق، وأنَّ التَّشبُّه المطلوب إنَّما هو بأهل الصَّلاح والخير والسَّداد ظاهرًا وباطنًا.

قال ابن رجب رحمه الله: «هذا يدلُّ على أمرين:

أحدهما: التَّشبُّه بأهل الشَّرِّ مثل أهل الكفر والفسوق والعصيان، وقد وبَّخ الله من تشبَّه بهم في شيء من قبائحهم، فقال تعالى: ﴿**فَاسْتَمْتَعْتُم بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا**﴾ [التوبة: ٦٩]، وقد نهى النَّبيُّ ﷺ عن التَّشبُّه بالمشركين وأهل الكتاب...

الثَّاني: التَّشبُّه بأهل الخير والتَّقوى والإيمان والطَّاعة، فهذا حسنٌ مندوبٌ إليه، ولهذا يُشرع الاقتداء بالنَّبيِّ ﷺ في أقواله وأفعاله وحركاته وسكناته وآدابه وأخلاقه، وذلك مقتضَى المحبَّة الصَّحيحة، فإنَّ المرء مع من أحبَّ، ولا بدَّ من مشاركتِه في أصلِ عمله، وإن قصَّر المحبُّ عن دَرجته...»(٤).

وقال شيخ الإسلام: «وهذا الحديث أقلُّ أحواله أن يقتضي تحريم التَّشبُّه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كُفرَ المتشبِّه بهم، كما في قوله: ﴿**وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ**﴾»(٥).

قال ابن كثير رحمه الله: «فيه دلالة على النَّهي الشَّديد والتَّهديد والوعيد على التَّشبُّه بالكفَّار في أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم، وغير ذلك من أمورهم الَّتي لم تُشرع لنا ولا نُقرّر عليها»(٦).

ومن أراد أن يشبع نهمته ويقف على عظم هذا الموضوع وأهمِّيته وكيف حرص الإسلام على شخصيَّة المسلم وحماها من التَّميُّع والتَّفسُّخ وأرادها معتزَّة مميَّزة شامخة، فليرجع إلى كتاب شيخ الإسلام الموسوم بـ«اقتضاء الصِّراط المستقيم» فإنَّه ذكر فيه ما يزيد على ثلاثين آية من القرآن الكريم، وقرَّر عقب كلِّ آية وجه الدِّلالة منها على موضوع التَّشبُّه.

ثمَّ ذكر من الأحاديث النَّبويَّة الدَّالَّة على تحريم مشابهة أهل الكتاب ما يقارب من المائة حديث، مع التَّعليق عليها وذكر وجه الدِّلالة.

ثمَّ ذكر الإجماع على التَّحريم، وأعقب ذلك بالآثار، ثمَّ ذكر الاعتبار ما في بعضه كفاية؛ فحريٌّ بكلِّ مسلم طالب للنَّجاة والاستقامة أن يطالع هذا الكتاب فإنَّه مفيد جدًّا.

وإن كنتُ ـ أيُّها القارئ الحبيب ـ قد أحلتك على مليء إلَّا أنَّ هذا لا يعفيني من أن أوجز لك بعض ما يمكن الظَّفر به من هذا الحديث من فوائد؛ فمن ذلك:

أنَّه مقتضى الاستقامة على الصِّراط المستقيم الَّذي يسأله العبد ربَّه كلَّ يوم في صلاته سبع عشرة مرَّة في الفرائض دون النَّوافل، فيقرأ قول الله تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧]، فمعنى هذه الاستقامة هو لزوم طاعة الله ورسوله كما جاء ذلك واضحًا صريحًا في الآية الَّتي بيَّنت من هم هؤلاء المنعَم عليهم، وهي قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ۝٦٩﴾ [النساء: ٦٩]، ومن علامات هذا الصِّراط أنَّه متميِّز وطريق مستقيم لا عِوَجَ فيه وسطٌ بين الغلوِّ والجفاء، وبين الإفراط والتَّفريط، قال العلماء: وأكَّد الله تعالى هذا التَّميُّز بـ «لا» ولم يكتف بالعطف، ليدلَّ على فساد كلَا الطَّريقين سواء طريق اليهود أم طريق النَّصارى، «وللفرق بين الطَّريقتين، لتجتنب كلٌّ منهما؛ فإنَّ طريقة أهل الإيمان مشتملةٌ على العلمِ بالحقِّ والعملِ به، واليهود فقَدوا العمل، والنَّصارى فقدوا العلمَ؛ ولهذا كان الغضبُ لليهود، والضَّلال للنَّصارى؛ لأنَّ من علم وترك استحقَّ الغضب، بخلاف من لم يعلَم؛ والنَّصارى لَّما كانوا قاصدين شيئًا لكنَّهم لا يهتدون إلى طريقه؛ لأنَّهم لم يأتُوا الأمرَ من بابه، وهو اتِّباع الرَّسول الحقِّ، ضلُّوا، وكلٌّ من اليهود والنَّصارى ضالٌّ



مغضوبٌ عليه، لكن أخصُّ أوصاف اليهود الغضب كما قال فيهم: ﴿مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٦٠]، وأخصُّ أوصاف النَّصارى الضَّلال كما قال: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴿٧٧﴾﴾ [المائدة: ٧٧]» قاله ابن كثير في «تفسيره» (١/ ١٤١).

وفي حديث عديّ بن حاتم قال ﷺ: «**إِنَّ اليَهُودَ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَإِنَّ النَّصَارَى ضُلَّالٌ**»[٧] لأجل هذا تتابعت الأحاديث على الأمر بمخالفة هاتين الأمَّتين المنحرفتين عن الصِّراط السَّويِّ في أمور كثيرة عديدة، فمثلا قال ﷺ: «**خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ احْفُوا الشَّوَارِبَ، وَأَرْخُوا اللِّحَى**»، وقال: «**إِنَّ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى لَا يَصْبِغُونَ فَخَالِفُوهُمْ**»...

فلم يكتف النَّبيُّ ﷺ بالنَّهي عن مشابهتهم بل أمر بمخالفتهم، وهذا يقتضي أن يكونَ جنسُ مخالَفتِهم أمرًا مقصودًا للشَّارع ـ كما قال شيخُ الإسلام ـ، بل هو مُقتضَى الاستقامةِ على الصِّراطِ المستقيم[٨].

لهذا حرص النَّبيُّ ﷺ نفسه على مخالفة اليهود وسائر المشركين في كلِّ أمورهم؛ ففي «صحيح مسلم» (٣٠٢): أنَّه ﷺ لَّما بلغه صنيعهم مع المرأة الحائض قال: «**اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ**»، فبلغ ذلك اليهود، فقالوا: ما يُريد هذا الرَّجلُ أن يَدع من أمرنا شيئًا إلَّا خالَفنا فيه».

فلم يكن ﷺ يدع شيئًا ممَّا يمكنه مخالفتهم إلَّا خالفهم فيه وأظهر المخالفةَ، لذا ينبغي لكلِّ مسلم مُعتزٍّ بدينه أن يقصد مخالفة الكفَّار من اليهود والنَّصارى وغيرهم في كلِّ ما يُمكنه أن يخالفَهم فيه ولا يتشبَّه بهم أبدًا خاصَّة فيما هو من خصائصهم ومميِّزاتهم وشعاراتهم، ليتميَّز المسلم بشخصيَّته الفذَّة.

ومع توارد هذه النُّصوص النَّاهية الزَّاجرة عن مشابهتهم والآمرة بإظهار مخالفتهم إلَّا أنَّ الواقف على حال الأمَّة اليوم يجد أكثر المسلمين قد تهافتوا على كلِّ ما يأتيهم من الغرب الكافر الملحد من غثٍّ وسمين وفُتِنُوا بكلِّ ما تَدُرُّ عليهم مخابرُ أوربا وأمريكا من أنواع (الموضة) والأزياء والهيئات حتَّى غدونا لا نفرِّق بين مسلم وكافر في الظَّاهر لشدَّة الموافقة والمشابهة والمشاكلة والمطابقة؛ فانظر إلى أنواع الألبسة وألوانها الَّتي تزيَّا بها شبابُنا وفَتياتنا، وأنواع القصَّات الشَّعريَّة الَّتي رسموا بها رؤوسهم وأحيانًا لحاهم في صور تتقزَّز منها النُّفوس السَّويَّة والأذواق المستقيمة، فما كان بالأمس محلّ هزء وسخريَّة يصير اليوم (موضة)، وما هو اليوم موضة يصير بعد غد شيئًا باليا

مطّرحا، وهكذا دواليك..، وشبابنا منساقون وراء هذا السَّراب، بل مروِّجون لكلِّ هذا الخراب، فأعلنُوا القطيعَةَ مع الأَصَالة، ورفعُوا شِعار العَصرنة والحَدَاثة، لا يرونَ الحياةَ تَسعدُ إلَّا إذا كانت على النَّمط الغربيِّ الأوربي، ومُتابعتِه في كلِّ ما يأتي ويَذَرُ، وهم بهذا يتحقَّق فِيهم ما أخْبر به الصَّادق المصدوق ﷺ حيث قال: **«لتتَّبعنَّ سَنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ، وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ؛ قالوا: يا رسُول الله! اليهودَ والنَّصارى؟ قال: فَمَنْ!؟»**[9].

والسَّنَنُ: هو الطَّريق، قال النَّوويُّ: «والمرادُ بالشِّبر والذِّراع وجحر الضَّبِّ: التَّمثيل بشدَّة الموافقة لهم في المعَاصي والمخَالَفات».

فانظر ـ رحمك الله ـ إلى واقعنا اليوم لتعلم يقينًا صدق هذا الخبر النَّبوي الكريم، حيث صار تقليد اليهود والنَّصارى ومشابهتهم في هيئاتهم وملابسهم وأشكالهم هو السِّمة الظَّاهرة والعادة المنتشرة، فأضحى المتمسِّك بالمظاهر الإسلاميَّةِ من ملبس وهيئة وسَمْتٍ يعدُّ شاذًّا مخالفًا لعُموم النَّاس، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله من تقلُّب الأحوال، وتحوُّل الأفهام.

إلَّا أنَّ المتمسِّكَ بسنَّة نبيِّه ﷺ والسَّائرَ على هديه ينبغِي أن لا يهِنَ قلبُه ولا يَلين عزمُه وأن يثبُتَ على دَربه، ولا يغترَّ بكثرةِ الواقِعين في حَمْأة المشابهة للكفَّار، ولا يَستوحش بقلَّة المعتزِّين بمظاهر الإسلام، ويَستأنس بقوله ﷺ: **«لَا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ قَائِمَةٌ بِأَمْرِ الله، لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ وَلَا مَنْ خَالَفَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ أَمْرُ الله وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ»**[10].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: «فعُلم بخبرِه الصِّدقِ أن لا بدَّ أن يكون في أمَّته قومٌ متمسِّكين بهديه الَّذي هو دينُ الإسلام محضًا، وقومٌ منحرفين إلى شُعبة من شُعَب دين اليهودِ أو إلى شُعبة من شُعَب دين النَّصَارى، وإن كان الرَّجلُ لا يكفُر بهذا الانحراف، بل وقد لا يفسُق أيضًا، بل قد يكونُ الانحراف كفرًا، وقد يكونُ فسقًا، وقد يكون سيِّئةً، وقد يكون خطأً.

وهذا الانحراف أمرٌ تتقاضاه الطِّباع، ويُزيِّنُه الشَّيطان، فلذلك أُمِر العبدُ بدوامِ دُعاء الله سبحانه بالهداية إلى الاستقامةِ الَّتي لا يهوديَّةَ فيها، ولا نَصرانيَّةَ أصلًا»[11].

والَّذي يدعو إلى العَجَبِ أنَّه كيف آثر المسلمون اليوم النُّزول من الأعلى إلى الأدنى، ورضوا لأنفسهم الذُّلَّ والهوان، وأبَوْا إلَّا أن يشابهوا الكفَّار



الفجَّار في هيئاتهم وألبستهم وأشكالهم وشعاراتهم، وحقَّروا أمر هذا النَّوع من التَّشبُّه، وما علم هؤلاء المستهينون بهذا التَّشبُّه الظَّاهري أنَّه داء قاتل للشَّخصيَّة الإسلاميَّة؛ لأنَّه يَسْري إلى القلب والعَقل والبَاطن، فيصيب الإيمان والفكر والتَّصوُّر؛ وإليك أخي القارئ بعض المفاسد الَّتي عدَّدها العلماء من جرَّاء هذا التَّشبُّه في الظَّاهر:

ـ أنَّ المشابهة في الهدي الظَّاهر ـ وهو المظهر والسُّلوك ـ تُورِثُ المشابهة في الباطن؛ قال ابن القيِّم رَحِمَهُ الله: «وَسِرُّ ذلك: أَنَّ المشَابَهَةَ في الهدي الظَّاهِرِ ذَرِيعَةٌ إِلَى المُوَافَقَةِ في القَصْدِ وَالعَمَلِ»[١٢].

وقال السَّعدي رَحِمَهُ الله في «بهجة قلوب الأبرار» (ص١٤٦): «فإنَّ التَّشبُّه الظَّاهر يدعو إلى التَّشبُّه الباطن، والوسائل والذَّرائع إلى الشُّرور قَصَد الشَّارعُ حَسمها من كلِّ وجه».

ـ أنَّ المشابهة في الظَّاهر تولِّد في نفس المتشَبِّه حبًّا للمتشبَّه به ومودَّةً، وهذا يخدش في أصل عظيم من أصول عقيدة المؤمن وهو قاعدة الولاء والبراء.

ـ أنَّ المشاركة في الهدي الظَّاهر تورث تناسبًا وتشَاكُلًا بين المتشابهين تعود إلى موافقة ما في الأخلاق والأعمال وهذا أمر محسوس؛ فإنَّ لابس ثياب الرِّياضيِّين مثلًا يجد من نفسِه نوعَ انضمام إليهم، ولابس ثياب الجند المقاتلة مثلًا يجد من نفسه نوع تخلُّق بأخلاقهم، وتصير طبيعته منقادة لذلك إلَّا أن يمنعه مانع[١٣].

ـ أنَّ المخالفة في الهدي الظَّاهر تُوجب مبايَنةً ومفارقةً توجب الانقطاع عن موجباتِ الغضب وأسباب الضَّلال والانعطاف على أهل الهدى والرِّضوان.

ـ أنَّ مشاركتهم في الهدي الظَّاهر تُوجب الاختلاطَ الظَّاهر حتَّى يرتفعَ التَّمييز ظاهرًا بين أهل الإسلام المهديِّين المرضيِّين، وبين أهل الكفر المغضوب عليهم والضَّالِّين.

ـ أنَّ نفس المخالفة لهم في الهدي الظَّاهر مصلحةٌ ومنفعةٌ لعباد الله المؤمنين، لما في مخالفتهم من المجانبة والمباينة الَّتي توجب المباعدة عن أعمال أهل الجحيم.

وأخيرًا أقول: إنَّ الَّذي يدفع بالمسلم اليوم ليتشبَّه بغيره من الكفَّار هو شعوره بـ(الدُّونيَّة) و(الانهزاميَّة) الَّتي ضربت بأطنابها على النُّفوس، وسبب ذلك أمران:

ـ الانبهار بالحضارة الغربية.

ـ والجهل بحقائق الإسلام.

ولو رجعنا بحقٍّ وصدق إلى ديننا لأعزَّنا الله بعزِّه، ورفع عنَّا كلَّ ذُلٍّ أحاط بنا بقدرته، فالله تعالى أخبر عن الكفَّار فقال: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ [الروم: ٧]، فلا يعدو علمهم أن يكون ظاهرًا من الحياة الدُّنيا الفانية الزَّائلة، وقال تعالى عنهم: ﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَبَقُوٓا۟ ۚ إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ ﴿٥٩﴾ ﴾ [الأنفال: ٥٩]، وقال تعالى: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾ ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

فمن نوَّر الله قلبه بنور العلم والإيمان وحقائق الإسلام سيظهر له سوء الكفر وبشاعته، وأنَّه مرض ضرره أشدُّ من ضرر أمراض البدن، فالمصلحة كلَّ المصلحة في عدم التَّشبُّه بالمغضوب عليهم والضَّالين.

وهنا تجدر الإشارة إلى أنَّ عدمَ التَّشبُّه بالكفَّار لا يَعني عدم الاستفادة ممَّا عندهم اليوم من صناعات متطوِّرة، وعلوم حديثة، وتكنولجيا عالية، بل هذا أمر آخر لا علاقة له بموضوع التَّشبُّه؛ لأنَّها ليست ممَّا اختصُّوا به، بل هي علوم مشتركَةٌ بين جميع البشر يحُوزها من حَرص عليها وجدَّ واجتهد في تحصيلها لا فرق في ذلك بين مسلم وكافر.

كما لا يمنع أبدًا أن نستوردَ منتوجاتهم ونقتنيَ سِلَعهم وآلاتهم المباحة النَّافعة، ونتعامل معهم في ذلك، وإنَّما المحذور أن نستورد عاداتهم وأخلاقهم وأعيادهم وسلوكاتهم، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله.

---

(١) انظر: «العلل» لابن أبي حاتم (١/ ٣١٩).
(٢) انظر: «العلل» للدَّارقطني (٩/ ٢٧٢).
(٣) انظر: «سؤالات الآجري لأبي داود» (١٦٨٢).
(٤) «الحكم الجديرة بالإذاعة» (ص٥٠ـ٥٦).
(٥) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (ص٢٧٠).
(٦) «تفسير ابن كثير» (١/ ٣٧٤).
(٧) أخرجه التِّرمذي (٢٩٥٤)، وقال: «حسن غريب»؛ وصحَّحه الألباني في «صحيح الجامع» (٨٢٠٢).
(٨) لأجل هذا سمَّى شيخ الإسلام رَحِمَهُ اللهُ كتابه «اقتضاءُ الصِّراطِ المستقِيم مخالفةَ أصحَابِ الجَحيم».
(٩) أخرجه البخاري (٣٢٦٩)، ومسلم (٢٦٦٩).
(١٠) أخرجه البخاري (٣٤٤٢).
(١١) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (ص٦).
(١٢) «إعلام الموقِّعين» (٣/ ١٥٢).
(١٣) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (١/ ٧٩).



حكمة التّفريق
بين الكافر والمؤمن في إنزال العقوبة

سمير مرابيع

قد يُشكل على بعض الخاصَّة فَضْلًا عن العامَّة، فيقولون: إذا كانت الحسنات والسيِّئات تحمل نَفعًا وضَررًا للمسلمين، فما بالها ليست كذلك على الكافرين، حيث نراهم يتنعَّمون في الدُّنيا ويتمتَّعون بلذَّاتها وشهواتها، من غير أن يلحقهم عقاب وهم سبب كلِّ عذاب؟

وقد حمل هذا الاستشكال بعض المتعالمة على التَّشكيك في النَّصِّ الشَّرعي، وتعطيل وتأويل الوحي السَّماوي، وتحكيم النَّتاج العقلي، والسَّير وراء كلِّ مُتَفَيْهِقٍ عميٍّ، حتَّى اعتبروا مقاييس النَّجاح والفلاح والعزَّة والنَّصر ما وجدوه بأيدي الكفرة من نعيم زائل، وزخرف عن الحقِّ مائل، فاتَّبعوا كلَّ ناعقٍ جاهل، ورُوَيْبِضَةٍ متحامل، ونبيُّنا ﷺ يكذِّب بصريح قوله ما اعتقدوه والتزموه واعتبروه فيقول: «الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الكَافِرِ»[1].

يقول القاضي عياض رحمه الله: «معناه أنَّ المؤمنَ في الدُّنيا ممنوع من الشَّهوات المحرَّمة، مُكلَّف بالأعمال الشَّاقَّة، فإذا مات استراح من هذا، وانقلب إلى ما أعدَّ الله تعالى له من النَّعيم المقيم، وأمَّا الكافر فإنَّما له من ذلك ما حصل له في الدُّنيا مع قلَّته وتكديره بالشَّوائب، حتَّى إذا فارق ذلك صار إلى سجن الجحيم»[2]، بل النُّصوص العديدة والرِّوايات المحكمة السَّديدة جاءت لبيان هذا الأصل، فالله جلَّ وعلا يُعجِّل مَثوبةَ أعمال الكافر في الدُّنيا مع ما يمنحه إيَّاه من الطَّيِّبات والملذَّات، حتَّى إذا بلغ يوم القيامة أُدخل النَّار وبئس القرار؛ لأنَّه مُكذِّب بيوم القيامة، منكر للبعث والنُّشور،

فكيف يُثاب في يومٍ هو لا يؤمن به ويَكفره؟ قال جل وعلا: ﴿وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ (٢٠)﴾ [السجدة: ٢٠].

ومن الآيات الدَّالَّة على هذا الأصل قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾ [الأحقاف: ٢٠]، وقال جلَّ جلاله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ (١٢)﴾ [محمد: ١٢]، حتى أيقن الكفَّار والمشركون بأن سبيل النَّجاة من النَّار لا يكون إلَّا بجمع المال وعدِّ الأولاد فخاب ظنُّهم وساء سبيلُهم، قال سبحانه: ﴿وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ (٣٥) قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٣٦) وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰ إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ (٣٧)﴾ [سبأ: ٣٥-٣٧].

لهذا قد يغيب هذا الأصل عن كثير، إلَّا مَن أُوتي حظًّا من علم وإيمان ويقين، يقول سبحانه وتعالى مُخبرًا عمن اغترَّ بكنوز قارون: ﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ (٧٩) وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ (٨٠)﴾ [القصص: ٧٩].

أمَّا المؤمنُ فإنَّ الدَّار الآخرة هي مَركز جزائِه ومَوعد مكافأته، مع تعجيل شيء من ثَواب حَسناته في الدُّنيا خشية السَّآمة ورفعًا للحرج والضَّيق، فربُّنا سبحانه وتعالى يُكفِّر عنه سيِّئاتِه في حياته الدُّنيا، بأشكال وأنواع من البلاء والمحن، وكلَّما ازدادت معاصيه وكثرت مخازيه، ازداد شقاؤه وعظم بلاؤه، وللآخرة خير له وأبقى، فيُجازى يومها بالثَّواب الكثير والجزاء الوفير، حكمةً من ربٍّ عزيزٍ خبير، يقول ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَظْلِمُ مُؤْمِنًا حَسَنَةً يُعْطَى بِهَا فِي الدُّنْيَا وَيُجَازَى بِهَا فِي الآخِرَةِ، وَأَمَّا الكَافِرُ فَيُطْعَمُ بِحَسَنَاتِ مَا عَمِلَ بِهِ للهِ فِي الدُّنْيَا حَتَّى إِذَا أَفْضَى إِلَى الآخِرَةِ لَمْ تَكُنْ لَهُ حَسَنَةٌ يُجْزَى بِهَا»[٣].

لهذا ما كانت كثرة المصائب والمتاعب والأزمات والنَّكبات الَّتي ما برحت تصيب المؤمن ويغتمُّ لها قلبه، إلَّا دليلاً على خيريَّة الأمَّة المحمَّديَّة، وأفضليَّتها على سائر الأمم يقول ﷺ: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ العُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[٤]، لذا

شبَّه ﷺ المؤمنَ بالنَّبتة الرَّطبة اللَّيِّنة الَّتي تَأتيها الرِّياح العاتية[٥]، فتأخذها يمنةً ويَسرة من غير أن تكسرها أو تَقتلعها، وضرب للمنافق والكافر والفاجر مثلًا بالشَّجرة الباسقة العظيمة الَّتي لا تؤثِّر فيها الرِّياح بشيء، حتَّى يأتي أمر الله فيجتثُّها دَفعة واحدة، يقول ﷺ: «**مَثَلُ المُؤْمِنِ كَمَثَلِ الخَامَةِ مِنَ الزَّرْعِ مِنْ حَيْثُ أَتَتْهَا الرِّيحُ كَفَأَتْهَا فَإِذَا اعْتَدَلَتْ تَكَفَّأُ بِالبَلَاءِ، وَالفَاجِرُ كَالأَرْزَةِ صَمَّاءَ مُعْتَدِلَة حَتَّى يَقْصِمَهَا اللهُ إِذَا شَاءَ**»[٦].

فلا غرابة إذن، أن يُذكِّر النَّبيُّ ﷺ أصحابه ﷺ بهذا الأصل حين يغيب عن الأذهان، أو تعظم شفقتهم على حال خير الأنام ﷺ، قال عمرُ ابنُ الخطاب ﷺ: «دخلت على رسول الله ﷺ فإذا هو مضطجعٌ على رمالِ حصيرٍ ليس بينه وبينه فراش، قد أثَّر الرِّمال بجنبه مُتَّكِئٍ على وسادةٍ من أدمٍ حَشْوُها ليف، فرفعت بصري في بيته فوالله ما رأيت فيه شيئًا يردُّ البصر غيرَ أُهَبَةٍ ثلاثة[٧] فقلت: يا رسول الله! ادع الله فليوسِّع على أمَّتك، فإنَّ فارس والرُّوم قد وُسِّع عليهم وأُعطوا من الدُّنيا وهم لا يعبدون الله، فجلس النَّبيُّ ﷺ وكان متَّكئًا فقال: «**أَوَ فِي شَكٍّ أَنْتَ يَا ابْنَ الخَطَّابِ! أُولَئِكَ قَوْمٌ عُجِّلَتْ لَهُمْ طَيِّبَاتُهُمْ فِي الحَيَاةِ الدُّنْيَا**»، فقلت: يا رسول الله استغفر لي»[٨]، فكانت عظة لعمر ﷺ وتذكرةً لمن أحسن النَّظر وأخذ بالعِبر.

وقد أحسن ﷺ وصفها ونعتها، لإظهار هوان منزلتها وحقارة رتبتها، فقال: «**لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا تَعْدِلُ عِنْدَ الله جَنَاحَ بَعُوضَةٍ مَا سَقَى كَافِرًا مِنْهَا شَرْبَةَ مَاءٍ**»[٩]، بل بالغ ﷺ في ذلك تأكيدًا وتنفيرًا، حتَّى شَبَّهَها بالميتةِ النَّتنة المعيبة الَّتي لا يقربها المؤمن إلَّا عند خشية الهلاك، فعن جابر ﷺ قال: «مرَّ رسول الله ﷺ بالسُّوق داخلًا مِن بعض العاليةِ والنَّاس كَنَفيْه، فمرَّ بجدْيٍ أَسَكَّ[١٠] ميت فَتَنَاوَله فأخذ بأذنه ثمَّ قال: «**أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنَّ هَذَا لَهُ بِدِرْهَمٍ؟**» فقالوا: ما نحب أنَّه لنا بشيء وما نصنع به؟ قال: «**أَتُحِبُّونَ أَنَّهُ لَكُمْ؟**» قالوا: والله لو كان حيًّا كان عيبًا فيه؛ لأنَّه أسكُّ فكيف وهو ميِّت؟ فقال: «**فَوَالله لَلدُّنْيَا أَهْوَنُ عَلَى الله مِنْ هَذَا عَلَيْكُمْ**»[١١].

حينئذ لا يغترُّ المؤمن بمن يُؤتى ويُعطى وتُسبغ عليه الخيرات والنِّعم والملذَّات، مع قُبح أقواله وسوء أفعاله وخبث مقاصده، فإنَّ ذلك طريقُ هلاكه وعلامة شقائه، يقول ﷺ: «**إِذَا رَأَيْتَ**

اللهَ يُعْطِي العَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ ثُمَّ تَلَا: ﴿فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾﴾ [الأنعام: ٤٤]»[١٢]، بل البشارة السَّارةُ؛ أن جعل الله جلَّ وعلا هذه المحن والبلايا سببًا لحطِّ الخطايا والرَّزايا حتَّى يسير العبد المؤمن على وجه الأرض وما عليه خطيئة، يقول ﷺ: «مَا يَزَالُ البَلَاءُ بِالْمُؤْمِنِ وَالْمُؤْمِنَةِ فِي نَفْسِهِ وَوَلَدِهِ وَمَالِهِ حَتَّى يَلْقَى اللهَ وَمَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[١٣]، وفي رواية: «فَمَا يَبْرَحُ البَلَاءُ بِالعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الأَرْضِ مَا عَلَيْهِ خَطِيئَةٌ»[١٤].

يقول الإمام ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «فلابدَّ من حصول الألم لكلِّ نفس مؤمنة أو كافرة، لكنَّ المؤمن يحصل له الألم في الدُّنيا ابتداءً، ثمَّ ينقطع ويعقبه أعظم اللَّذَّة، والكافر يحصل على اللَّذَّة والسُّرور ابتداء ثمَّ ينقطع ويعقبه أعظم الألم والمشقَّة»[١٥]، فالأمراض والأوجاع والأسقام الَّتي يبتلى بها المؤمن في حياته تحط عنه الكثير من الخطايا وتكفر عنه كثيرا من السيئات، قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى يَبْتَلِي عَبْدَهُ الْمُؤْمِنَ بِالسَّقَمِ حَتَّى يُكَفِّرَ عَنْهُ كُلَّ ذَنْبٍ»[١٦].

ومن ثمَّ؛ يجب أن نُوقِنَ بأنَّ المركزَ الأصيل لعقوبةِ الكفَّارِ هي الدَّارُ الآخرة، إلَّا أنَّه قد يَظهر شيءٌ منها في الحياة الدنيا لحكمٍ ربَّانيَّة سماويَّة، فإذا قاموا بما يَستوجبُ تعجيلَ العقوبةِ في الدُّنيا، كالظُّلم مثلًا، قُوبلوا بأنواع من العقوبات والنَّكبات في حياتهم الدُّنيا قبل الآخرة، وما قَصص الدُّولِ والأمم البائدة المذكورة في القرآن عنَّا ببعيد، قال ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ، قَالَ: ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ [هود: ١٠٢]»[١٧].

فهذه حياة المسلمِ المؤمن الصَّادقِ وتلك حياة الكافر المشرك المنافق، فهو سبحانه وتعالى خَالق الأسباب، ومُدبِّر شُؤون خلقه، قد جعل فرقانًا بين أولياء الرَّحمن وأولياء الشَّيطان على نحو هذا البيان، فهل عَسينا أن نستبدل دنياهم بأخرانا، وقد رَضوا بأن تكون ثمنًا لأُخراهم، قال جلَّ وعلا عنهم: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ﴾ [البقرة: ٨٦]، وقال سبحانه: ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ



﴿مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۘ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢١٢﴾﴾ [البقرة: ٢١٢].

وصلَّى الله على سيِّدنا محمَّد، وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) رواه مسلم (٢٩٥٦) من كتاب الزُّهد والرَّقائق.

(٢) «شرح الأبي على مسلم» (٩/ ٤٢٧).

(٣) رواه مسلم (٢٨٠٨): كتاب صفة القيامة والجنَّة والنَّار، باب جزاء المؤمن بحسناته في الدُّنيا والآخرة وتعجيل حسنات الكافر في الدُّنيا.

(٤) **حسن**: رواه التِّرمذي (٢٥٠٧): أبواب الزُّهد عن رسول الله ﷺ، باب الصَّبر على البلاء، انظر: «الصَّحيحة» لزيادة تخريجه (١٢٢٠).

(٥) وهي بمعنى المصائب الَّتي تلحق المؤمن.

(٦) رواه البخاري (٥٣٢٠)، ومسلم (٢٨١٠)، واللَّفظ للبخاري.

(٧) الإهاب: هو الجلد مَا لَمْ يُدْبَغْ [«مختار الصِّحاح» (ص٣١)].

(٨) **متَّفق عليه**: البخاري (٤٨٩٥)، مسلم (١٤٧٩).

(٩) **صحيح**: رواه التِّرمذي (٢٤٢٢)، أبواب الزُّهد عن رسول الله ﷺ: باب ما جاء في هوان الدُّنيا على الله، انظر: «الصَّحيحة» لزيادة تخريجه (٦٨٦/ ٩٤٣).

(١٠) جدي أسك: أي صغير الأذنين، قاله النَّووي في «شرح مسلم» (١٨/ ٩٣).

(١١) مسلم (٢٩٥٧): كتاب الزُّهد.

(١٢) **صحيح**: رواه أحمد (٤/ ١٤٥)، انظر: «الصحيحة» لزيادة تخريجه (٤١٣).

(١٣) **حسن صحيح**: رواه التِّرمذي (٢٥١٠)، أبواب الزُّهد عن رسول الله ﷺ، باب في الصَّبر على البلاء، انظر: «الصَّحيحة» لزيادة تخريجه (٢٢٨).

(١٤) **صحيح**: رواه التِّرمذي (٢٥٠٩)، أبواب الزُّهد عن رسول الله ﷺ، باب في الصَّبر على البلاء، انظر: «الصَّحيحة» لزيادة تخريجه (١٤٣).

(١٥) «شفاء العليل» (٢/ ٦٧١).

(١٦) **صحيح**: رواه الحاكم (١/ ٣٤٧/ ٣٤٨)، انظر: «الصَّحيحة» لزيادة تخريجه (٣٣٩٣).

(١٧) **متفق عليه**: البخاري (٤٤٠٩)، مسلم (٢٥٨٣).

فكُّ الأسارى

في النَّهي عن الاحتفال بأعياد النَّصارى

د/ عبد المجيد جمعة

من المصائب الَّتي بليت بها هذه الأمَّة، فأزالت عنها النِّعمة، وجلبت لها النِّقمة، تشبُّه كثير من أبنائها بأعدائها من اليهود والنَّصارى، وشمل هذا التَّشبُّه جميع المجالات: في العادات والعبادات، والسُّلوك والأخلاق والمعاملات، ومن أخصِّ مظاهر التَّشبُّه مشاركتهم في أعيادهم، ومشابهتم في مواسمهم، لاسيما عيد ميلاد المسيح عليه السلام ـ والَّذي يصادف اليوم الخامس والعشرين من شهر ديسمبر ـ، وعيد ميلاد السَّنة الجديدة ـ والذي يصادف الأوَّل من شهر جانفي ـ، فترى كثيرًا من المسلمين إذا صادفوا هذين اليومين سارعوا إلى إقامة الاحتفالات، وإظهار المهرجانات، وقد عظمت الفتنة، واشتدَّت المحنة، حيث يسافر بعضهم إلى الدُّول الغربيَّة لشهود تلك الأعياد الفاجرة، ومشاركة الكفَّار في شعائرهم الكفرية، رغم ما يحدث فيها من المنكرات: من شرب الخمور، وفعل الفجور، وغير ذلك من أنواع الشُّرور.

وقد تعالت صيحات المصلحين، وظهرت فتاوى العلماء الرَّبَّانيِّين في تحذير المسلمين من المشاركة في أعياد المشركين، لما في ذلك من الفساد في الدِّين؛ ولعلَّ خير من تناول هذا الموضوع بالتَّفصيل والتَّأصيل: شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في كتابه الفذِّ الَّذي لم تر العيون مثله: «اقتضاء الصِّراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم»، وقد حشد لذلك الأدلَّة العامة والخاصَّة، وجمع



النُّصوص من الكتاب والسُّنَّة وأقوال السَّلف وإجماع الأمَّة، والأدلَّة من الاعتبار والنَّظر ممَّا لا تجدها في غيره، فصل فيها الكلام، وأزال بها اللِّثام، وميَّز الحلال عن الحرام، وها أنا أختصر ما ذكره مع بعض الزِّيادات والإضافات، لعلَّها تهدي الحيارى، وتفكُّ الأسارى من ربقة التَّشبُّه باليهود والنَّصارى.

* أوَّلًا: الأدلَّة من الكتاب:

قال تعالى: ﴿ ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ ۝٧ ﴾ [الفاتحة: ٦ ـ ٧]، ووجه الدّلالة من الآية أنَّ الله تعالى أمر عباده المؤمنين أن يسألوه في جميع صلواتهم الهداية إلى سبيل الَّذين أنعم عليهم ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾، وأن يجنِّبهم سبيل المغضوب عليهم والضَّالِّين، والأمَّة الغضبيَّة هم اليهود، وأمَّة الضَّلال هم النَّصارى، كما قال النَّبيُّ ﷺ: «اليَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، وَالنَّصَارَى ضُلاَّلٌ»[1]، وهذا يقتضي تحريم اتِّباع سبيلهم، وأعيادهم من سبيلهم.

وقال سبحانه: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨ ﴾ [الجاثية: ١٨]، فأخبر سبحانه أنَّه جعل محمَّدًا ﷺ على شريعة شرعها له، وأمره باتِّباعها، ونهاه عن اتِّباع أهواء الَّذين لا يعلمون، وقد دخل في ذلك كلُّ من خالف شريعته من اليهود والنَّصارى وغيرهم، وأهواؤهم: هو ما يهوونه؛ ومتابعتهم فيما يختصُّون به من دينهم وأعيادهم، اتِّباع لأهوائهم.

ونظيره قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ۝١٢٠ ﴾ [البقرة: ١٢٠] ففيه تهديد، ووعيد شديد للأمَّة عن اتِّباع طرائق اليهود والنَّصارى، بعد ما عَلِموا من القرآن والسُّنَّة، ومتابعتهم في بعض ما هم عليه من الدِّين والأعياد، متابعة لهم فيما يهوونه.

وقال عز وجل: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١ ﴾ [المائدة: ٥١].

قال العلماء: ومن موالاتهم التَّشبُّه بهم، وإظهارُ أعيادهم، وهم مأمورون بإخفائها في بلاد المسلمين، فإذا فعلها المسلم معهم، فقد أعانهم على إظهارها[2].

وقال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ ٱلزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢]، فقد تأوَّل غيرُ واحدٍ من السَّلف أنَّه أعياد المشركين، كما قاله أبو العالية ومجاهد وابن سيرين والرَّبيع بن أنس والضحَّاك وغيرهم، وهو

مرويٌّ عن ابن عبَّاس[٣]، فسمَّى أعيادهم زورًا، وحضورها شهودها، وقد نصَّ أحمد على أنَّه لا يجوز شهود أعياد النَّصارى واليهود، واحتجَّ بهذه الآية كما سيأتي، ووجه الدّلالة من الآية أنَّ الله تعالى أثنى على المؤمنين الَّذين هم عباد الرَّحمن في تركهم شهود هذه الأعياد الَّذي هو مجرَّد الحضور، برؤيةٍ أو سماعٍ؛ فكيف بمن يوافقهم في ذلك بالاحتفال؟

*** ثانيا ـ الأدلَّة من السُّنَّة:**

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ**»[٤] فدلّ هذا الحديث على تحريم التَّشبُّه بهم مطلقًا، ومنه الاحتفال بأعيادهم، فإنَّها من جنس أعمالهم الَّتي هي دينهم أو شعار دينهم الباطل.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قدم رسول الله ﷺ المدينة، ولهم يومان يلعبون فيهما، فقال: «**مَا هَذَانِ الْيَوْمَانِ؟**» قالوا: كنَّا نلعب فيهما في الجاهلية، فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الْأَضْحَى وَيَوْمَ الْفِطْرِ**»[٥]، فوجه الدّلالة أنَّ اليومين الجاهليين لم يقرّهما رسول الله ﷺ، ولا تركهم يلعبون فيهما على العادة، بل قال: إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا يَوْمَيْنِ آخَرَيْنِ، والإبدال من الشَّيء، يقتضي ترك المبدل منه، إذ لا يجمع بين البدل والمبدل منه، ولهذا لا تستعمل هذه العبارة إلَّا فيما ترك اجتماعهما، وأيضًا، فقوله لهم: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ**»، لَّما سألهم عن اليومين فأجابوه: بأنَّهما يومان كانوا يلعبون فيهما في الجاهلية، دليلٌ على أنَّه نهاهم عنهما اعتياضًا بيومي الإسلام، إذ لو لم يقصد النَّهي لم يكن ذكر هذا الإبدال مناسبًا، إذ أصل شرع اليومين الإسلاميَّيْن كانوا يعلمونه، ولم يكونوا ليتركوه لأجل يومي الجاهلية[٦].

وعن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «**يَا أَبَا بَكْرٍ إِنَّ لِكُلِّ قَوْمٍ عِيدًا وَهَذَا عِيدُنَا**»[٧].

فدلَّ هذا الحديث على أنَّ كلَّ أمَّةٍ قد اختصَّت بعيدها، لا يشاركها فيه غيرها، وأنَّ المسلمين قد اختصُّوا بعيدهم لا يشاركوننا فيه، فإذا كان لليهود عيد وللنَّصارى عيد، كانوا مختصِّين به، فلا نشركهم فيه.

وأيضًا، فإنَّ النَّبيَّ ﷺ رخَّص في اللَّعب بالدُّفِّ والغناء، معلِّلًا بأنَّه عيد المسلمين، وهذا يقتضي بأنَّ الرُّخصة لا تتعدَّى إلى أعياد اليهود والنَّصارى، وهذا فيه دلالة على النَّهي عن التَّشبُّه بهم في اللَّعب ونحوه.

وعن أبي هريرة وحذيفة رضي الله عنهما قالا: قال



رسول الله ﷺ: «أَضَلَّ اللهُ عَنِ الْجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، فَكَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ وَكَانَ لِلنَّصَارَى يَوْمُ الْأَحَدِ، فَجَاءَ اللهُ بِنَا فَهَدَانَا اللهُ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَجَعَلَ الْجُمُعَةَ وَالسَّبْتَ وَالْأَحَدَ وَكَذَلِكَ هُمْ تَبَعٌ لَنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ، نَحْنُ الْآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الْخَلَائِقِ»[8]، فأخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ يوم الجمعة عيد للمسلمين، كما أنَّ السَّبت لليهود والأحد للنَّصارى، وهذا يقتضي اختصاص كلّ أمَّة بعيدها، فإذَا نحن شاركنا اليهود يوم السَّبت، أو النَّصارى يوم الأحد، فقد شاركناهم في عيدهم، وإذا كان هذا في العيد الأسبوعي، فالأولى والأحرى في العيد السَّنوي، إذ لا فرق؛ بل إذا كان هذا في عيد يعرف بالحساب العربي، فكيف بأعياد الكافرين العجميَّة؟ الَّتي لا تعرف إلَّا بالحساب الرُّومي القبطي أو الفارسي أو العِبْري ونحو ذلك.

وعن أبي سعيد الخدري أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «لَتَتَّبِعُنَّ سَنَنَ مَنْ قَبْلَكُمْ شِبْرًا بِشِبْرٍ وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ حَتَّى لَوْ سَلَكُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَسَلَكْتُمُوهُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟!»[9].

فأخبر النَّبيُّ ﷺ أنَّ أمَّته ستتَّبع سَنَنَ الأمم قبلها من اليهود والنَّصارى ممَّا أحدثوه من البدع والأهواء، وأنَّها تقتدي بهم في كلِّ شيء ممَّا نهى عنه الشَّارع وذمَّه، مع الحرص الشَّديد على موافقتهم في ذلك؛ وهذا يقتضي ذمّ من يفعل ذلك، وهذا عَلَمٌ من أعلام النَّبوة، ومعجزةٌ ظاهرة لرسول الله ﷺ، فقد وقع ما أخبر به ﷺ.

*** ثالثا ـ الأدلَّة من الأثر:**

أمَّا من الأثر فقد نهى كثير من الصَّحابة عن مشاركة الكفَّار في أعيادهم أو شهودها أو الدُّخول عليهم فيها، ونحو ذلك.

قال عمر رضي الله عنه: «لا تعلَّموا رَطَانَة[10] الأعاجم، ولا تدخلوا على المشركين في كنائسهم يوم عيدهم، فإنَّ السَّخطة تنزل عليهم»[11].

وقال أيضًا: «اجتنبوا أعداء الله في عيدهم»[12].

فهذا عمر رضي الله عنه نهى عن لسانهم، وعن مجرَّد دخول الكنيسة عليهم يوم عيدهم، فكيف بفعل بعض أفعالهم أو بفعل ما هو من مقتضيات دينهم؟ أليست موافقتهم في العمل أعظم من الموافقة في اللُّغة؟ أو ليس بعض أعمال عيدهم أعظم من مجرَّد الدُّخول عليهم في عيدهم؟ وإذا كان السَّخط ينزل عليهم يوم عيدهم بسبب عملهم، فمن يشركهم في العمل أو بعضه أليس قد تعرَّض لعقوبة ذلك، ثمَّ قوله: «اجتنبوا أعداء الله في عيدهم» أليس نهيًا عن

لقائهم والاجتماع بهم فيه؟ فكيف بمن عمل عيدهم؟»[13].

وقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما: «من بنى ببلاد الأعاجم فصنع نيروزهم ومهرجانهم، وتشبَّه بهم حتى يموت ـ وهو كذلك ـ حُشِرَ معهم يوم القيامة»[14]، وهذا يقتضي أنَّه جعل ذلك من الكبائر الموجبة للنَّار.

وعن محمَّد بن سيرين قال: «أُتِيَ علي رضي الله عنه بهديَّة النَّيْرُوز، فقال: ما هذه؟ قالوا: يا أمير المؤمنين! هذا يوم النَّيروز، قال: فاصنعوا كلَّ يوم نيروزًا، قال أبو أسامة: كره رضي الله عنه أن يقول نيروزًا»[15].

فكره موافقتهم في اسم يوم العيد الَّذي ينفردون به، فكيف بموافقتهم في العمل؟

رابعًا ـ الدَّليل من الإجماع:

أمَّا من الإجماع فقد شارط عمر بن الخطَّاب رضي الله عنه أهل الكتاب ألَّا يظهروا شيئًا من شعائرهم بين المسلمين، لا الأعياد ولا غيرها، فقال: «وألَّا نخرج بَاعُوثًا ولا شَعَانِين»[16]؛ فأمَّا الباعوث فقد فسَّره الإمام أحمد في رواية ابنه صالح فقال: «يخرجون كما نخرج في الفطر والأضحى». وأمَّا الشّعانين فهي أعياد لهم أيضًا[17]؛ وقد اتَّفق على هذه الشُّروط الصَّحابة وسائرُ الفقهاء، كما حكاه شيخ الإسلام ابن تيميَّة وتلميذه ابن القيِّم ـ رحمة الله عليهما ـ.

فإذا كان المسلمون قد اتَّفقوا على منعهم من إظهارها، فكيف يسوغ للمسلم فعلها؟ ولا شكَّ أنَّ فعله لها أشدّ من إظهار الكافر لها.

وأيضًا فقد أجمع العلماء على تحريم حضور أعياد الكفَّار ومساعدتهم في ذلك، وقد صرَّح به الفقهاء من أتباع الأئمَّة الأربعة في كتبهم.

أوَّلًا ـ مذهب الحنفية:

قال ابن نُجيم الحَنفي في بيان أنواع الكفر: «وبخروجه إلى نيروز المجوس، والموافقة معهم فيما يفعلون في ذلك اليوم، وبشرائه يوم النَّيروز شيئًا لم يكن يشتريه قبل ذلك تعظيمًا للنَّيروز لا للأكل والشُّرب، وبإهدائه ذلك اليوم للمشركين ولو بيضة تعظيمًا لذلك اليوم لا بإجابته دعوة مجوسيٍّ حلق رأس ولده وبتحسين أمر الكفَّار اتِّفاقا»[18].

ثانيًا ـ مذهب المالكية:

قال عبد الملك بن حبيب: «سئل ابن القاسم عن الرُّكوب في السُّفن الَّتي تركب فيها النَّصارى إلى أعيادهم فكره ذلك مخافة نزول السَّخطة عليهم بشركهم الَّذي اجتمعوا عليه، قال: وكره ابن القاسم

للمسلم أن يهدي إلى النَّصراني في عيده مكافأة له، ورآه من تعظيم عيده وعونًا له على كفره؛ ألا ترى أنَّه لا يحلُّ للمسلمين أن يبيعوا من النَّصارى شيئًا من مصلحة عيدهم لا لحمًا ولا أدمًا ولا ثوبًا ولا يعارون دابَّة ولا يعانون على شيء من عيدهم؛ لأنَّ ذلك من تعظيم شركهم وعونهم على كفرهم، وينبغي للسَّلاطين أن ينهوا المسلمين عن ذلك، وهو قول مالك وغيره لم أعلمه اختلف فيه»[١٩].

وقال الشَّيخ الدَّردير فيما يجرح شهادة الرَّجل: «ولعب نيروز» أي أنَّ اللَّعب في يوم النَّيروز وهو أوَّل يوم من السَّنة القبطية مانعٌ من قَبول الشَّهادة، وهو من فعل الجاهليَّة والنَّصارى، ويقع في بعض البلاد من رعاع النَّاس»[٢٠].

ثالثًا ـ مذهب الشَّافعيَّة:

قال أبو القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطَّبري الفقيه الشَّافعي: «ولا يجوز للمسلمين أن يحضروا أعيادهم؛ لأنَّهم على مُنْكَرٍ وَزُورٍ، وإذا خالط أهل المعروف أهل المنكر بغير الإنكار عليهم كانوا كالرَّاضين به، المؤثرين له؛ فنخشى من نزول سخط الله على جماعتهم، فيعمّ الجميع، نعوذ بالله من سخطه»[٢١].

وقال البيهقي في «السُّنن الكبرى» (٩/ ٢٣٤): «باب كراهيَّة الدُّخول على أهل الذِّمَّة في كنائسهم، والتَّشبُّه بهم يوم نيروزهم ومهرجانهم».

رابعًا ـ مذهب الحنابلة:

قال الإمام أبو الحسن الآمدي المعروف بابن البغدادي في كتابه «عمدة الحاضر وكفاية المسافر»: «فصل: لا يجوز شهود أعياد النَّصارى واليهود، نصَّ عليه أحمد في رواية مهنا، واحتجَّ بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢]، قال: الشَّعانين وأعيادهم»[٢٢].

*** رابعًا ـ الدَّليل من الاعتبار:**

وأمَّا من حيث الاعتبار والنَّظر فمن وجوه:

أحدها: أنَّه قد استقرَّ في الشَّريعة الإسلاميَّة مخالفة الكفَّار في كلِّ ما اختصُّوا به، والأعياد من أهمِّ الخصائص الَّتي اختصُّوا به.

الوجه الثَّاني: أنَّ الأعياد من جملة الشَّرائع الَّتي تتميَّز بها كلُّ أمَّة، لقوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ﴾ [الحج: ٦٨]، ومشاركة المسلمين النَّصارى في أعيادهم، مشاركة لهم في شعائر دينهم الباطلة.

الوجه الثَّالث: أنَّ هذه الأعياد هي محدثة في دين النَّصارى، وقد عُرِف القوم بالإحداث في الدِّين، كما قال تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧]، وما أحدث من المواسم والأعياد بدعة، وكلّ بدعة ضلالة؛ ولو أحدث المسلمون بدعة لكانت ضلالة، فكيف ما أحدثه هؤلاء الضَّلَّال؟!

الوجه الرَّابع: أنَّ هذه الأعياد البدعيَّة صارت مضاهاة لما شرعه الله من الأعياد الشَّرعيَّة.

فمتى تعوَّدت القلوبُ البدع لم يبقَ فيها فضلٌ للسُّنن.

الوجه الخامس: أنَّ مشاركتهم في أعيادهم ذريعة إلى مشابهتهم في أخلاقهم وأعمالهم المذمومة؛ لأنَّ المشابهة والمشاكلة في الأمور الظَّاهرة توجب مشابهة ومشاكلة في الأمور الباطنة على وجه المسارقة والتَّدريج الخفيّ، وهذا أمرٌ محسوس، وسدّ الذَّرائع قاعدة عظيمة من قواعد الشَّرع، بل هو أحد أرباع الدِّين.

الوجه السَّادس: أنَّ الاحتفال بأعيادهم توجب محبَّتهم وموالاتهم، والمحبَّة والموالاة لهم تنافي الإيمان، كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٥١﴾﴾ [المائدة: ٥].

الوجه السَّابع: أنَّ مشاركتهم في الاحتفال بأعيادهم توجب لهم العزَّة؛ لأنَّهم يودُّون أن يروا المسلمين تبعًا لهم في أمور دنياهم، فكيف المتابعة في أمور دينهم؟!

وينبني على هذا أنَّه لا يجوز للمسلم أن يتشبَّه بهم في أعيادهم ولا يعين من يتشبَّه بهم، ولا إجابة دعوتهم، ولا أكل طعامهم، ولا قبول هديَّتهم، ولا بيع ما يستعينون به على أعيادهم.

الوجه الثَّامن: أنَّ مشاركتهم في أعيادهم إقرار لهم على ما هم عليه من الباطل، وتكثير لسوادهم.

هذه بعض مظاهر الفساد في مشابهتهم ومشاركتهم في أعيادهم، وإلَّا فهي أكثر من أن تحصر.

وينبني على ما تقدَّم ذكره أنَّه يحرم حضور أعياد الكفار، أو مشاركتهم فيها، أو إعانتهم على إقامتها، أو بيع ما يستعينون به على إظهارها، أو الدُّخول معهم في كنائسهم، أو إهداء لهم أو قبول هديتهم، أو إجابة دعوتهم، أو تهنئتهم بهذا العيد، أو اتِّخاذ هذا اليوم يوم راحة وفرح وسرور، وذلك بترك الوظائف الرَّاتبة: من الصَّنائع، والتِّجارات،



أو حِلَقِ العلم، أو طبخ طعام مخصوص أو توزيع الحلويات، أو إيقاد الشُّموع وتبخير البخور، وتزيين الشَّوارع والمباني والقصور، وغير ذلك من الأمور؛ لأنَّ في ذلك إعانة على المنكرات، والله تعالى يقول: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ﴾ [المائدة: ٢].

والضَّابط في ذلك: أنَّه لا يُحدَث فيه أمرٌ أصلًا، بل يُجعل يومًا كسائر الأيَّام.

وبعد عرض هذه النُّصوص الصَّحيحة والدَّلائل الصَّريحة، فهل يشكُّ من في قلبه ذرَّة من الإيمان، في تحريم مشابهة عبَّاد الصُّلبان، ومشاركتهم في أعيادهم في كلِّ زمان ومكان، وهو يعلم ما تكتنفه هذه الأعياد من الكفر والفسوق والعصيان؟! أفما وَجدْت يا مسلم ما تحتفل به إلَّا ما يُسخط الرَّحمن، ويُرضي الشَّيطان، وهو شعار أهل الكفر والطُّغيان؟! فهل يصحُّ في الأذهان أن تقلِّد دينًا شرعهُ الأحبار والرُّهبان؟! والله المستعان، وعليه التُّكلان، ولا حول ولا قوَّة إلَّا بالله العليِّ العظيم.

اللَّهمَّ يا مقلِّب القلوب ثبِّت قلوبنا على دينك، اللَّهمَّ يا مصرِّف القلوب صرِّف قلوبنا إلى طاعتك، واتِّباع شرعك، وسنَّة نبيِّك، وجنِّبنا الابتداع، واتِّباع الأهواء.

آمين، والحمد لله ربِّ العالمين.

---

(١) هو طرف من حديث طويل أخرجه الترمذي (٢٩٥٣) عن عدي بن حاتم ﷺ، وصحَّحه الشَّيخ الألباني: في «صحيح التِّرمذي».

(٢) «تشبيه الخسيس بأهل الخميس» (٢٣).

(٣) انظر: «تفسير ابن أبي حاتم» (١٥٤٥٤)، «الدُّرّ المنثور» (٦/ ٢٨٢)، «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (١/ ٤٧٩)، «أحكام أهل الذِّمَّة» (١/ ١٥٦).

(٤) أخرجه أبو داود (٤٠٣١)، وجوَّد إسناده شيخ الإسلام ابن تيميَّة في «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (١/ ٢٤٠)، وكذا في «مجموع الفتاوى» (٢٥/ ٣٣١)، وحسَّنه الحافظ في «الفتح» (١٠/ ٢٧١)، وصحَّحه الحافظ العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (١/ ٣٤٢)، والشَّيخ الألباني في «الإرواء» (١٢٦٩).

(٥) رواه أبو داود (١١٣٤)، والنَّسائي (١٥٥٦)، وصحَّحه الحافظ في «الفتح» (٢/ ٤٤٢)، والشَّيخ الألباني في «صحيح السُّنن»، وزاد شيخ الإسلام ابن تيمية في «الاقتضاء» (١/ ٤٨٦) على شرط مسلم.

(٦) قاله شيخ الإسلام في «الاقتضاء» (١/ ٤٨٨).

(٧) أخرجه البخاري (٩٠٩)، ومسلم (٨٩٢)، وفيه قصَّة معروفة.

(٨) رواه مسلم (٨٥٦).

(٩) أخرجه البخاري (٣٢٦٩)، ومسلم (٢٦٦٩).

(١٠) «الرَّطَانَة» ويقال أيضًا: الرِّطانة والمُراطنة: التَّكلُّم بالأعجميَّة، من رَطَنَ العجمي يَرْطُنُ رطنًا، تكلَّم بلغته، انظر: «لسان العرب» (مادة: رطن).

(١١) رواه عبد الرَّزَّاق في «مصنَّفه» (١/ ٤١١)، والبيهقي في «السُّنن الكبرى» (٩/ ٢٣٤)، وصحَّحه شيخ الإسلام في «الاقتضاء» (١/ ٥١١)، وابن القيِّم في «أحكام أهل الذِّمَّة» (١/ ١٥٦).

(١٢) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٩/ ٢٣٤)، وكذا في «شعب الإيمان» (٩٣٨٥).

(١٣) قاله شيخ الإسلام ابن تيميَّة في «الاقتضاء» (١/ ٥١٥).

(١٤) أخرجه البيهقيّ في «الكبرى» (٩/ ٢٣٤)، وصحَّحه أيضًا شيخ الإسلام في «الاقتضاء» (١/ ٥١٣)، وابن القيِّم في «أحكام أهل الذِّمَّة» (١/ ١٥٧).

(١٥) أخرجه البيهقي في «الكبرى» (٩/ ٢٣٥) بسند صحيح.

(١٦) أخرجه البيهقي (٩/ ٢٠٢)، وعزاه شيخ الإسلام ابن تيميَّة في «الاقتضاء» (١/ ٣٢٦) إلى حرب، وابن القيِّم في «أحكام أهل الذِّمَّة» (٢/ ٦٥٧) إلى عبد الله ابن الإمام أحمد، وعنه الخلَّال في كتاب «أحكام أهل الملل»، وجوَّد إسناده ابن تيميَّة، وقال ابن القيِّم: «وشهرة هذه الشُّروط تغني عن إسنادها، فإنَّ الأئمَّة تلقَّوها بالقَبول، وذكروها في كتبهم، وقد أنفذها بعده الخلفاء، وعملوا بموجبها».

(١٧) هو عيد نصراني، يقع يوم الأحد السَّابق لعيد الفصح، يحتفل فيه بذكرى دخول المسيح بيت القدس، انظر: «المعجم الوسيط» (١/ ٤٨٦).

(١٨) «البحر الرَّائق» (٥/ ١٣٣)، وانظر: «الدُّرّ المختار» (٦/ ٧٥٤)، «الفتاوى الهنديَّة» (٦/ ٤٤٦)، «مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر» (٤/ ٤٩١).

(١٩) نقله عنه شيخ الإسلام ابن تيميَّة في «الاقتضاء» (١/ ١٩)، وابن القيِّم في «أحكام أهل الذِّمَّة» (١/ ١٥٧).

(٢٠) «الشَّرح الكبير» (٤/ ١٨١)، وانظر: «التَّاج والإكليل» (٦/ ١٧٥)، «مواهب الجليل» (٤/ ٥٢٩).

(٢١) نقله ابن القيِّم في «أحكام أهل الذِّمة» (١/ ١٥٦).

(٢٢) نقله شيخ الإسلام في «الاقتضاء» (١/ ٥١٦)، وابن القيِّم في «أحكام أهل الذِّمَّة» (١/ ١٥٧)، وانظر: «الفروع» لابن مفلح (٥/ ٢٣٥).



من سيرته ﷺ:
العدل والإحسان مع أهل الكتاب

د/ رضا بوشامة

الحمد لله القائل في كتابه: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾ [الممتحنة: ٨]، وصلى الله وسلم على خير الورى، محمد بن عبد الله المبعوث للثقلين الإنس والجن، المتخلق بأخلاق القرآن الكريم، والمأمور بمجاهدة الكافرين والمشركين من سائر الملل بقوة السيف والقلم، ومعاملة المعاهدين والمستأمنين بالَّتي هي أحسن شرط بقائهم على العهد المبرم، والميثاق المعقود معهم إلى أجل، وبعد:

فإنَّ الله تعالى بعث محمدًا نبيَّه ﷺ على فترة من الرسل، داعيًا إلى الله تعالى جميع الملل والنحل، فلم يفرِّق في هِداية النَّاس بين أعجمي وعربي، فأطاعه أقوام وعصاه آخرون، ووقفوا في وجه دعوته بشتى الأساليب، فجاهدهم ﷺ في الله حقَّ جهاده، فنصره الله النصر المبين، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وكانت الغلبة للمؤمنين، فقامت بَعْدَ انتصارات جيوشِ الإسلام دولةٌ يهابها العدوُّ من اليهود والنصارى وغيرهم، فاضطرهم المؤمنون إلى أمرين لا ثالث لهما؛ إمَّا استسلام ودخول في دين الله تعالى، وإمَّا دفع للجزية والتعايش مع المسلمين في أمن وأمَان، فاختار طائفة من الكافرين من أهل الكتاب السِّلم والعيش في كنف المسلمين؛ لما رأوا من عدالة الإسلام وحسن التعامل مع المخالف في الدين، وهذا الذي أمر به الله عز وجل كما مر في الآية السابقة، وحثَّ عليه نبيُّ الرحمة أتباعَه المؤمنين، وفي ذلك عزٌّ ورفعة للمسلم، وإظهار لمحاسن هذا الدِّين الذي هو دين البشرية جمعاء.

وفي سيرة النبي ـ عليه الصلاة والسلام ـ بيان لما تضمنته هذه الآية الكريمة من حُسن البِرِّ والتَّعامل الحسن مع الكافرين سواء كانوا هودًا أو نصارى، فحريٌّ بالمسلم أن يقف وقفات مع سيرة سيد الخلق، وسيرة من اتَّبعه بإحسان من صحابته الكرام، ويدرك كيف كان تعاملهم مع الذمِّي المعاهَد والمستأمَن، بل جاء التحذير الشديد من إيذائهم وقتلهم بغير حقٍّ؛ قال البخاري في «صحيحه» في كتاب الجزية: «باب إثم مَن قتل معاهدًا بغير جُرم» ثم أورد بسنده إلى عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، عن النَّبيِّ ﷺ قال: «**مَنْ قَتَلَ مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا تُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**»[1]، وأورده أيضًا في كتاب الديات، في «باب إثم من قتل ذمِّيًّا بغير جُرم» بلفظه: «**مَنْ قَتَلَ نَفْسًا مُعَاهَدًا لَمْ يَرِحْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**»[2]، قال الحافظ ابن حجر: «كذا ترجم بالذمِّيِّ، وأورد الخبر في المعاهد، وترجم في الجزية بلفظ: (مَن قتل معاهدًا)، كما هو ظاهر الخبر، والمراد به مَن له عهدٌ مع المسلمين سواء كان بعقد جزية أو هُدنة من سلطان أو أمان من مسلم»[3].

قلت: ورواه النسائي بلفظ: «**مَنْ قَتَلَ قَتِيلًا مِنْ أَهْلِ الذِّمَّةِ لَمْ يَجِدْ رِيحَ الجَنَّةِ، وَإِنَّ رِيحَهَا لَيُوجَدُ مِنْ مَسِيرَةِ أَرْبَعِينَ عَامًا**»[4].

فهذا وعيد شديد، وتحذير أكيد من ظلم المعاهدين والمستأمنين.

وأما سيرته ﷺ مع أهل الكتاب ومعايشتهم له فالآثار فيها كثيرة، وحسن معاملته لهم معلومة، اقتداء بما أُمر به في كتاب الله تعالى من العدل فيهم وبرِّهم، وفي هذه العجالة نستعرض بعض مواقِفه ـ عليه الصلاة والسلام ـ ومواقف صحابته رضي الله عنهم تجاه الكافر بالله والذمِّيِّ، فمن ذلك:

١ ـ زيارتهم إذا مرضوا ودعوتهم للدخول في الدِّين:

قال الإمام البخاري رحمه الله في «صحيحه» في كتاب المرضى: «باب: عيادة المشرك»، وأورد من طريق أنس رضي الله عنه: «أَنَّ غُلامًا لِيَهُودَ كَانَ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَالَ: «**أَسْلِمْ**»، فَأَسْلَمَ»[5].

وأورده في كتاب الجنائز بلفظ: «كَانَ غلامٌ يَهُودِيٌّ يَخْدُمُ النَّبِيَّ ﷺ فَمَرِضَ، فَأَتَاهُ النَّبِيُّ ﷺ يَعُودُهُ، فَقَعَدَ عند رَأسِهِ فَقَالَ لَهُ: «**أَسْلِمْ**»، فنَظرَ إلى أبيه وهو عندَهُ، فقال له: أطِعْ أبا القَاسِم ﷺ، فأَسْلَمَ، فخرج النَّبِيُّ ﷺ وهو يقول: «**الحمدُ لله الَّذي أَنْقَذَهُ مِن النَّارِ**»[6].



قال ابن حجر: «وفي الحديث جوازُ استخدام المشرك، وعيادته إذا مرض، وفيه حُسن العهد، واستخدام الصغير، وعرض الإسلام على الصبي...»(٧).

وقال ابن بطال: «إنما يُعادُ المشرك ليُدعى إلى الإسلام إذا رجا إجابته إليه، ألا ترى أنَّ اليهوديَّ أسلم حين عرض عليه النبيُّ ﷺ الإسلامَ وكذلك عرض الإسلام على عمِّه أبي طالب، فلم يقض الله له به، فأمَّا إذا لم يطمع بإسلام الكافر ولا رُجيت إنابته فلا تنبغي عيادته»(٨).

أورد معناه الحافظ ثم قال: «والذي يظهر أنَّ ذلك يختلف باختلاف المقاصد، فقد يقع بعيادته مصلحة أخرى، قال الماوردي: عيادة الذِّمِّي جائزة، والقربة موقوفة على نوع حرمة تقترن بها من جوار أو قرابة »(٩).

ويؤيد ذلك أيضًا زيارة عمِّه أبي طالب وعرضه الإسلام عليه.

٢ ـ الدعاء لهم بالهداية والصلاح:

قال البخاري في كتاب «الأدب المفرد»: «باب إذا عطس اليهودي»، ثم أورد بإسناده عن أبي موسى رضي الله عنه قال: «كان اليهود يتعاطسون عند النبي ﷺ رجاء أن يقول لهم: يرحمكم الله، فكان يقول: **يَهْدِيكُمُ اللهُ وَيُصْلِحُ بَالَكُمْ**»(١٠).

قال المباركفوري: « ولا يقول لهم يرْحَمُكُم الله؛ لأَنَّ الرَّحْمَةَ مُخْتَصَّةٌ بِالمؤمنِينَ، بَلْ يَدْعُو لهم بما يُصْلِحُ بَالَهُمْ من الهدايةِ وَالتَّوْفِيقِ وَالإِيمَانِ»(١١).

٣ ـ الوصية بهم للجوار:

فقد ثبت عن النبي ﷺ الوصيَّةُ بالجار، وحُسن معاملته، والأمر في ذلك عام، سواء كان مسلمًا أو يهوديًّا أو نصرانيًّا، روى البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**مَا زَالَ جبريلُ يُوصِيني بالجَارِ حَتَّى ظَنَنْتُ أَنَّه سَيُورِّثُه**».

وقد فهم الصحابيُّ الجليل عبد الله بن عَمرو رضي الله عنه ـ وهو من رواة هذا الحديث أيضًا ـ العموم في هذا الخبر، وأنَّ ذلك لا يختص بالمسلم فقط، بل يتعدَّاه إلى غيره من أهل الكتاب؛ روى أبو داود والبخاري في «الأدب المفرد» وغيرهما عن مجاهد قال: «كنتُ عند عبد الله بن عمرو ـ وغلامُه يَسلَخ شاةً ـ فقال: يا غلام! إذا فرغتَ فابْدَأ بجارِنا اليهوديِّ، فقال رجلٌ من القوم: آليهوديَّ أصلحك الله؟! قال: سمعت النبيَّ ﷺ يُوصي بالجار، حتى خَشِينا أو رُؤينا أنَّه سيوَرِّثه»(١٢).

قال الحافظ ابن حجر: «وَاسْمُ الجَار يَشْمَل المسْلِمَ وَالْكَافِرَ، وَالعَابِدَ وَالْفَاسِقَ، وَالصَّدِيقَ وَالْعَدُوَّ، وَالْغَرِيب وَالْبَلَدِيَّ، وَالنَّافِع وَالضَّارَّ،

وَالْقَرِيبَ وَالأَجْنَبِيَّ، وَالْأَقْرَب دَارًا وَالْأَبْعَدَ، وَلَهُ مَرَاتِب بَعْضهَا أعلى من بعض، فَأَعْلَاهَا مَنْ اجتَمعَتْ فِيهِ الصِّفَات الْأُوَل كُلّهَا ثُمَّ أَكْثَرهَا وَهَلُمَّ جَرًّا إِلى الوَاحِد، وَعَكْسه مَن اجْتَمَعَتْ فيه الصِّفَات الأخْرَى كَذَلِكَ، فَيُعْطى كُلٌّ حَقه بِحَسَبِ حَاله، وَقَدْ تَتَعَارَض صفتان فأكثر فَيُرَجِّح أو يُسَاوِي، وقد حَمَلَه عبد الله بن عَمْرو ـ أحد من روى الحديث ـ على العموم، فَأَمَرَ لَـمَّا ذُبِحَتْ له شاة أَنْ يُهدَى منهَا لجاره اليهودِيّ، أخرجه البخاريّ في «الأدب المفرد» والتِّرمذيّ وحَسَّنَه، وقد ورَدتْ الإشَارة إلى ما ذَكَرْتُه في حديث مرفوع أخرجه الطَّبرانِيُّ مِن حَديث جابر رفَعَهُ: «**الجِيرَانُ ثَلاثَةٌ: جَارٌ لَهُ حَقٌّ وهو المشْرِكُ لَهُ حَقُّ الجِوَار، وجَارٌ لهُ حَقَّانِ وهو المسلِمُ له حَقُّ الجِوَار وَحَقُّ الإسلام، وجارٌ له ثلاثَةُ حُقُوقٍ: مُسْلِم له رَحِم لَهُ حَقُّ الجِوَار والإسلام والرَّحِم**»[13].

٤ ـ الدُّعاء لهم بالهداية، وعدم لعنهم:

ومن سيرته ﷺ عدم لعن الكفَّار، والحرص على دعوتهم واستقامتهم، فعن أبي هريرة قال: قيل: يا رسُول الله! ادْعُ عَلَى المشرِكِينَ، قال: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا، وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**»[14].

وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» وترجم له بقوله: «باب لعن الكافر».

وأمَّا ما ورد من نصوص في لعن الكافر من كتاب الله وسنة رسوله فهي محمولة على لعن الكافر الحربيِّ الذي يؤذي المؤمنين والمؤمنات، فقد أورد البخاري في «صحيحه» في كتاب الجهاد: «باب الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة»، وذكر فيه أحاديث عدَّة تشتمل على الدعاء عليهم، ثم أورد بعده بباب: «باب الدعاء للمشركين بالهدى ليتألَّفهم»، وذكر تحته حديث: «**اللهمَّ اهْد دوسًا وائْتِ بهم**»[15]، قال ابن حجر: «قوله: «ليتألَّفهم» مِن تَفَقُّه المصنف؛ إشارة منه إلى الفرق بين المقامين، وأنَّه ﷺ كان تارة يدعو عليهم، وتارة يدعو لهم، فالحالة الأولى حيث تشتدُّ شوكتُهم ويكثر أذاهم، كما تقدم في الأحاديث التي قبل هذا بباب، والحالة الثانية حيث تُؤمن غائِلتُهم ويُرجى تألُّفهم، كما في قصة دَوْس...»[16].

قلت: بل كان من سيرته ﷺ أن لا يفصح باللَّعن، بل قد يردُّ على مَن ظلمه مِن غير أن يكون في لسانه فُحش ولا لعن، فقد روى البخاريُّ ومسلم عن عائشة رضي الله عنها زوج النَّبِيِّ ﷺ قالت: دخل رَهْطٌ مِن اليهُودِ على رسولِ الله ﷺ فقالوا: السَّامُ علَيكُمْ.



قَالت عَائشةُ: فَفَهِمْتُهَا، فقُلتُ: وعَلَيكُمُ السَّامُ واللَّعْنَةُ، قالت: فقال رسُول الله ﷺ: « **مَهْلًا يا عَائشَةُ! إنَّ الله يُحِبُّ الرِّفْقَ في الأَمْرِ كُلِّهِ**». فقلت: يا رسول الله! ولَمْ تَسْمعْ ما قالوا؟ قال رسُول الله ﷺ: «**قد قلتُ: وعليكم**»(١٧).

قال الحافظ ابن حجر: «وإنَّما أطْلَقتْ عليهم اللَّعْنَةَ إمَّا لأنَّها كانت تَرَى جَوازَ لَعْنِ الكَافِرِ المعَيَّن باعْتبارِ الحَالة الرَّاهِنة، لا سيما إذا صَدَرَ منه ما يَقتضِي التَّأْدِيب، وإمَّا لأنَّها تقَدَّم لَهَا عِلْمٌ بأنَّ المذكورين يَمُوتُون على الكفر، فأَطْلَقت اللَّعْنَ ولم تُقَيِّدهُ بالموتِ، والَّذي يَظْهَرُ أنَّ النَّبيَّ ﷺ أراد أن لا يتَعَوَّدَ لسانُها بالفُحْشِ، أو أنْكرَ عليها الإفْرَاطَ في السَّبِّ»(١٨).

وهذا التصرُّفُ من النبيِّ ﷺ ودعاؤه عليهم بما دَعوا هم عليه كان بعد أن تأكَّد من سَبِّهم له ودعائهم عليه بالموت، فكانوا هم أحقَّ بذلك.

٥ ـ كيفية تحيتهم وردِّ السَّلام عليهم:

أمَّا إن سَلَّم اليهوديُّ أو النصرانيُّ على المسلم بصيغة لا يُفهَمُ منها الدعاء عليه فيُشرع له حينئذ أن يردَّ عليه السلام، لقوله تعالى: ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّواْ بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**﴾ [النساء: ٨٦].

وللشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله فيه كلامٌ يتعلق بكيفية ردِّ السلام على الكافر وبدئه به، نورده على طوله لما فيه من فوائد عزيزة تتعلق ببحثنا هذا، فقال عند كلامه على حديث: «**لا تبدءوا اليهودَ والنَّصارَى بالسَّلام، وإذا لَقِيتُم أحدَهم في طَريقٍ فاضطرُّوهم إلى أضْيقِه**».

قال رحمه الله: «...والغرضُ مِن إيراده هنا أنَّه جمعنا مجلسٌ فيه طائفةٌ مِن أصحابنا أهلِ الحديث، فورد سؤالٌ عن جواز بَدءِ غيرِ المسلمِ بالسَّلام، فأجبتُ بالنَّفي محتَجًّا بهذا الحديث، فأبدى أحدُهم فهمًا للحديث مُؤدَّاه أنَّ النَّهيَ الذي فيه إنَّما هو إذا لَقيَه في الطَّريقِ، وأمَّا إذا أتاه في حانوتِه أو منزلِه فلا مانِع مِن بَدئِه بالسَّلام! ثمَّ جَرى النقاشُ حوله طويلًا، وكلٌّ يُدلي بما عنده مِن رأي، وكان مِن قولي يومئذ: أنَّ قوله: «لا تبدؤوا» مطلَقٌ ليس مقيَّدًا بالطَّريق، وأنَّ قوله: «وإذا لَقيتُم أحدَهم في طريق...» لا يُقيِّدُه؛ فإنَّه مِن عَطف الجملة على الجملة، ودَعَّمتُ ذلك بالمعنى الذي تضمَّنته هذه الجملة، وهو أنَّ اضطرارَهم إلى أضْيَقِ الطُّرق إنَّما هو إشارة إلى تركِ إكرامِهم لكفرِهم، فناسب أن لا يُبدَؤوا مِن أجل ذلك بالسَّلام لهذا المعنى، وذلك

يقتضي تعميم الحكم.

هذا ما ذكرتُه يومئذ، ثم وجدتُ ما يُقوِّيه ويشهدُ له في عدة روايات:

الأولى: قول راوي الحديث سهيل بن أبي صالح: «خرجت مع أبي إلى الشام، فكان أهل الشام يمرُّون بأهل الصوامع فيُسلِّمون عليهم، فسمعت أبي يقول: سمعتُ أبا هريرة يقول: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول...» فذكره. أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٦) وأبو داود بسند صحيح على شرط مسلم.

فهذا نص من راوي الحديث ـ وهو أبو صالح واسمه ذكوان تابعي ثقة ـ أن النهي يشمل الكتابي ولو كان في منزله ولم يكن في الطريق.

وراوي الحديث أدرى بمرويِّه من غيره، فلا أقل من أن يصلح للاستعانة به على الترجيح.

ولا يشكل على هذا لفظ الحديث عند البخاري في «أدبه» (١١١١)، وأحمد في «مسنده» (٢/ ٤٤٤): **«إذا لَقِيتُم المشركين في الطَّريق، فلا تَبْدَؤُوهم بالسَّلام واضطرُّوهُمْ إلى أَضْيَقِها»**، فإنَّه شاذٌّ بهذا اللَّفظ، فقد أخرجه البخاري أيضا (١١٠٣) ومسلم، وأحمد (٢/ ٢٦٦، ٤٥٩) وغيرهما من طرق عن سهيل ابن أبي صالح باللفظ المذكور أعلاه.

الثانية: عن أبي عثمان النهدي قال: «كتب أبو موسى إلى دِهقان يسلم عليه في كتابه، فقيل له: أتسلم عليه وهو كافر؟! قال: إنَّه كتب إليَّ فسلمَ عليَّ، فرددتُ عليه» أخرجه البخاري في «أدبه» (١١٠١) بسند جيد.

ووجه الاستدلال به، أن قول القائل: «أتسلم عليه وهو كافر؟!» يُشعر بأنَّ بدءَ الكافر بالسلام كان معروفا عندهم أنه لا يجوز على وجه العموم، وليس خاصًّا بلقائه في الطريق، ولذلك استنكر ذلك السائل على أبي موسى وأقرَّه هذا عليه ولم ينكره، بل اعتذر بأنَّه فعل ذلك ردًّا عليه لا مُبتدِئًا به، فثبت المراد».

ثم ذكر الشيخ حديث كتاب النبي ﷺ لهرقل ولم يبدأه بالسلام، ثم قال: «فلو كان النهي المذكور خاصا بالطريق لبدأه عليه السلام بالسلام الإسلامي، ولم يقل له: «**سَلامٌ عَلى مَن اتَّبَعَ الهدَى**».

ثم ذكر الرواية الرابعة وهي حديث عيادته ﷺ الغلام اليهودي ولم يبدأه بالسلام، ثم قال: «فلو كان البدء الممنوع إنَّما هو إذا لقِيَه في الطريق لبدأه عليه السلام بالسَّلام؛ لأنَّه ليس في الطريق كما هو ظاهر».

وذكر الرواية الخامسة وهي مجيئه إلى عمِّه وهو يحتضر ولم يسلم عليه، ثم قال: «فثبت من هذه



الروايات أنَّ بدء الكتابيِّ بالسَّلام لا يجوز مطلقًا، سواء كان في الطريق أو في المنزل أو غيره.

فإن قيل: فهل يجوز أن يبدأه بغير السَّلام، من مثل قوله: كيف أصبحت، أو أمسيت، أو كيف حالك ونحو ذلك؟ فأقول: الذي يبدو لي والله أعلم الجواز؛ لأنَّ النهيَ المذكور في الحديث إنَّما هو عن السَّلام، وهو عند الإطلاق إنَّما يُراد به السَّلام الإسلامي المتضمن لاسم الله عز وجل، كما في قوله ﷺ: «**السَّلَامُ اسْمٌ مِنْ أَسْمَاءِ اللهِ وَضَعَهُ فِي الأَرْضِ فَأَفْشُوهُ بَيْنَكُمْ**» أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (٩٨٩).

ومما يؤيِّد ما ذكرته قول علقمة: «إنَّما سلم عبد الله (يعني ابنَ مسعود) على الدَّهاقين إشارة» أخرجه البخاري (١١٠٤) مترجمًا له بقوله: «مَن سلَّم على الذِّمِّيِّ إشارة»، وسنده صحيح، فأجاز ابنُ مسعود ابتداءهم في السلام بالإشارة؛ لأنه ليس السَّلام الخاص بالمسلمين، فكذلك يُقال في السلام عليهم بنحو ما ذكرنا من الألفاظ ...».

ثم قال: «مسألة أخرى جرى البحث فيها في المجلس المشار إليه، وهي: هل يجوز أن يُقال في رَدِّ السلام على غير المسلم: وعليكم السلام؟ فأجبت بالجواز بشرط أن يكون سلامُه فصيحًا بيِّنًا لا يلوي فيه لسانه، كما كان اليهود يفعلونه مع النبي ﷺ وأصحابه بقولهم: السَّام عليكم، فأمر النبيُّ ﷺ بإجابتهم بـ«وعليكم» فقط، كما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما من حديث عائشة.

قلت: فالنظر في سبب هذا التشريع، يقتضي جواز الرَّدِّ بالمثل عند تحقق الشرط المذكور، وأيَّدت ذلك بأمرين اثنين:

الأول: قوله ﷺ: «**إِنَّ اليَهُودَ إِذَا سَلَّمَ عَلَيْكُمْ أَحَدُهُمْ فَإِنَّمَا يَقُولُ: السَّامُ عَلَيْكَ، فَقُولُوا: وَعَلَيْكَ**» أخرجه الشيخان، والبخاري أيضا في «الأدب المفرد» (١١٠٦)، فقد علَّل النبي ﷺ قوله: «فقولوا: وعليك» بأنَّهم يقولون: السَّام عليك، فهذا التعليلُ يعطي أنَّهم إذا قالوا: «السلام عليك» أن يُرُدَّ عليهم بالمثل: «وعليك السلام»، ويؤيِّده الأمر الآتي وهو:

الثاني: عمومُ قوله تعالى ﴿**وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا**﴾ فإنَّها بعمومها تشمل غير المسلمين أيضًا.

هذا ما قلته في ذلك المجلس، وأزيد الآن فأقول: ويؤيِّد أنَّ الآية على عمومها أمران:

الأول: ما أخرجه البخاري في «الأدب المفرد» (١١٠٧) والسياق له، وابن جرير الطبري في

«التفسير» (١٠٠٣٩) من طريقين عن سماك، عن عكرمة، عن ابن عباس قال: «رُدُّوا السلام على مَن كان يهوديًّا أو نصرانيًّا أو مجوسيًّا، ذلك بأنَّ الله يقول: ﴿وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ...﴾ الآية» ...».

إلى أن قال: «والآخر: قول الله تبارك وتعالى:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٨﴾﴾.

فهذه الآية صريحة بالأمر بالإحسان إلى الكفار المواطنين الذين يسالمون المؤمنين ولا يؤذونهم، والعدل معهم، ومما لا ريب فيه أنَّ أحدَهم إذا سلَّم قائلًا بصراحة: «السلام عليكم»، فرددناه عليه باقتضاب: «وعليك» أنَّه ليس مِن العدل في شيء بَلْهَ البِر؛ لأنَّنا في هذه الحالة نُسَوِّي بينه وبين مَن قد يقول منهم: «السَّام عليكم»، وهذا ظلمٌ ظاهر، والله أعلم». انتهى كلام الشيخ عليه رحمة الله[19].

وبهذا العرض الموجز لبعض ما كان من سيرته ﷺ وسيرة صحابته يتبيَّن لنا طرق معاملة الصدر الأوَّل من الصحابة للكفَّار وأهل الكتاب، وأنَّهم سِلمٌ على مَن سالَمهم، حربٌ على مَن حاربهم، قوَّامون بالقسط والعدل، فحريٌّ بالمسلم أن يكون على نهجهم ويتبع سبيلهم ليسلم من الغلو والجفاء، والله ولي التوفيق والسداد.

---

(١) «صحيح البخاري» (٣١٦٦).
(٢) «صحيح البخاري» (٦٤١٩).
(٣) «فتح الباري» (١٢/ ٢٧١).
(٤) «سنن النسائي» (٤٧٦٤).
(٥) «صحيح البخاري» (٦٧٥٧).
(٦) «صحيح البخاري» (١٣٥٦).
(٧) «الفتح» (٣/ ٢٦٢).
(٨) «شرح صحيح البخاري» لابن بطال (٩/ ٣٨٠).
(٩) «فتح الباري» (١٠/ ١٢٥).
(١٠) «الأدب المفرد» (٩٤٠)، وأخرجه أبو داود في «السنن» (٥٠٣٨)، وأحمد في «المسند» (٣٢/ ٣٥٦)، وغيرهم، وانظر: «صحيح الأدب المفرد» للألباني (٧١٩).
(١١) «تحفة الأحوذي» (٨/ ١٢).
(١٢) «سنن أبي داود» (٥١٥٢)، «الأدب المفرد» (١٢٨) واللفظ له، وانظر: «صحيح الأدب» للألباني (٩٥).
(١٣) «فتح الباري» (١٠/ ٤٥٦). والحديث الذي ذكره عن الطبراني هو في «مسند الشاميين» (٢٤٥٨)، وضعفه الألباني في «الضعيفة» (٣٤٩٣).
(١٤) أخرجه مسلم في «صحيحه» (٤/ ٢٠٠٦).
(١٥) «صحيح البخاري» (٢٩٣٧).
(١٦) «فتح الباري» (٦/ ١٢٦).
(١٧) «البخاري» (٦٠٢٤)، «مسلم» (٤/ ١٧٠٦).
(١٨) «فتح الباري» (١١/ ٤٦).
(١٩) «الصحيحة» (٧٠٤) مع اختصار في بعض المواضع.



﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا ...﴾

نجيب جلواح

خلق الله تعالى الخلقَ ليعبدوه، وأمرهم أن يوحِّدوه؛ فالعبادة هي الغاية المحبوبة لله، فمِن أجلها فطرهم، وبسببها أوجدهم، قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ [الذاريات: ٥٦]، وبالعبادة أرسل الله تعالى جميع الرُّسل، كما قال كلٌّ مِن نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم عليهم السلام لقومهم: ﴿ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ﴾ [الأعراف: ٥٩].

ولَمَّا أمرهم بعبادته وحده لا شريك له، نهاهم عن عبادة غيره، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا ٱلطَّٰغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦].

والعبادة لها أصلان: أنْ لا يُعبد إلَّا الله، وأنْ يُعبد بما أمر وشرع، قال الفضيل بن عياض ـ في قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧، الملك: ٢] ـ قال: «أَخْلَصُه وأَصْوَبُه»، قالوا: يا أبا عليٍّ، ما أخلصه وأصوبه ؟ قال: «العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يُقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل، حتَّى يكون خالصًا صوابًا، والخالص أنْ يكون لله، والصَّواب أنْ يكون على السُّنَّة»[1].

وكَمْ هم كثير الَّذين لم يحقِّقوا شَرْطَيْ قبول العبادة ـ الإخلاص والمتابعة ـ، وسأكتفي ـ هنا ـ بذكر صِنف واحد من هؤلاء العُبَّاد، الَّذين لم يقبل الله تعالى عبادتهم، وهم الَّذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدُّنيا ويحسبون أنَّهم يُحسنون صنعًا، وهذا ليحذرهم مَن لا يعرفهم على حقيقتهم، ولا يغترَّ بصنيعهم مَن أُعجب بظاهرهم؛ إنَّهم النَّصارى.

* وهذه بعض مجالات تعبُّدهم المنحرف:

١ ـ غلوُّهم في الصَّالحين ـ من العلماء والأولياء ـ وهو أعظم سبب لعبادتهم إيَّاهم من دون الله، قال تعالى: ﴿ **اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١)** ﴾ [التوبة: ٣١].

فاتِّخاذهم أحبارهم أربابًا يحلِّلون ويحرِّمون، ويُدعون لدفع الضَّرِّ أو جلب النَّفع، هذا من مظاهر عبادتهم لهم.

ولَّما غلا النَّصارى في طاعة أحبارهم ورهبانهم: حرَّموا على أنفسهم أكل الطَّيِّبات مِن الرِّزق، وتركوا زينة الله الَّتي أخرج لعباده، قال تعالى: ﴿ **قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢)** ﴾ [الأعراف: ٣٢].

عَنْ عَدِيٍّ بْنِ حَاتِمٍ قَالَ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ؛ اطْرَحْ عَنْكَ هَذَا الْوَثَنَ»، وَسَمِعْتُهُ يَقْرَأُ فِي سُورَةِ «بَرَاءَةٌ»: ﴿ **اتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ** ﴾ [فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ]، قَالَ: «أَمَا إِنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْبُدُونَهُمْ وَلَكِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ [فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ]»[٢]، وعلى هذا دلَّ قوله سبحانه وتعالى: ﴿ **يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ (٨٧)** ﴾ [المائدة: ٨٧].

٢ ـ غلوُّهم في الأنبياء والمرسلين عليهم السلام قال تعالى: ﴿ **يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ** ﴾ [النساء: ١٧١].

وقد وبَّخ الله تعالى النَّصارى بسبب عبادتهم لعيسى عليه السلام: ﴿ **وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ (١١٦)** ﴾ [المائدة: ١١٦] وقد تبرَّأ منهم عيسى عليه السلام، فقال: ﴿ **مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)** ﴾ [المائدة: ١١٧].

وعبادة النَّصارى للمسيح عليه السلام كان سببها الغلوّ في التَّعظيم والإطراء؛ ولهذا حذَّر النَّبيُّ ﷺ أمَّته من إطرائه، خوفًا من أن يقعوا فيما وقع فيه مَن



قبلهم؛ فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما أَنَّه سَمِعَ عُمَرَ رضي الله عنه يَقُولُ ـ عَلَى الْمِنْبَرِ ـ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**لَا تُطْرُونِي كَمَا أَطْرَتِ النَّصَارَى ابْنَ مَرْيَمَ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُهُ، فَقُولُوا عَبْدُ اللهِ وَرَسُولُهُ**»(٣)، إنَّ أعظم مدح له ﷺ أنْ نقول فيه ما قال ربُّنا عزَّ وجلَّ: إنَّه عبده ورسوله، فتلك أكبر تزكية له ﷺ وليس فيها إفراط ولا تفريط، ولا غلوٌّ ولا تقصير.

وإذا كانت عبادة هؤلاء لعيسى بن مريم شِرْكًا، وهو من الأنبياء المرسلين، فكيف بعبادة غيره ممَّن هو دونه كالأولياء والصَّالحين؟!

٣ ـ دعاؤهم غير الله تعالى، حيث يتعبَّدون بإشراك أحبارهم ورهبانهم في دعاء الله تعالى وعبادته، ويظنُّون أنَّ ذلك ممَّا يحبه الله، ويزعمون أنَّ هؤلاء شفعاؤهم عند الله، جاعلين بين الله وبين خلقه وسائط ما أنزل الله بها مِن سلطان، قال تعالى: ﴿ **وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰٓؤُلَآءِ شُفَعَٰٓؤُنَا عِندَ ٱللَّهِ** ﴾ [يونس: ١٨]، ولَمَّا كان الدُّعاء عبادة، ذمَّ الله المستكبرين عنه فقال سبحانه: ﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾** ﴾ [غافر: ٦٠].

٤ ـ تنزيههم أنفسهم عمَّا نسبوه لخالقهم، فيتعبَّدون بترك الزَّواج الذي أحلَّه الله تعالى، ويحرِّمه أحبارهم على أنفسهم، بحجَّة أنَّ ذلك منقصة في حقِّهم، ويتنزَّهون عن الولد والزَّوجة، ويقولون: إنَّ تحصيل الكمال لا يكون إلَّا بالتَّرفُّع عن دناءة التَّمتُّع بالنِّساء، وهذا اقتداء منهم بالمسيح عليه السلام كما يدَّعون ويزعمون، ولكن ترك المسيح التَّزوُّج، لعلَّه كان لعارض آخر، الله تعالى أعلم به، وليس ترك التَّزوُّج مِن صفات النُّبوَّة، إذْ كان لجميع الأنبياء أزواج وذريَّة، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة رحمه الله: «فأما الإعراض عن الأهل والأولاد فليس ممَّا يحبُّه الله ورسوله، ولا هو من دين الأنبياء، بل قد قال الله تعالى: ﴿ **وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً** ﴾ [الرعد: ٣٨]»(٤).

فانظر ـ رحمك الله ـ إلى سخافة العقول، ودناءة التَّفكير، وما قادهم إليه ضلالهم، حتَّى حرَّموا على أنفسهم ما أباحه الله لهم مِن الطَّيِّبات، ونسبوا لخالقهم ما برَّؤوا منه أنفسهم، إذ جعلوا لله تعالى الولد، كما أخبر ربُّ العزَّة عنهم: ﴿ **وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾** ﴾ [التوبة: ٣٠]،

والله تعالى منزَّه عن الصَّاحبة والولد ﴿بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٞ وَلَمۡ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٞۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٠١﴾ [الأنعام: ١٠١]، ﴿وَأَنَّهُۥ تَعَٰلَىٰ جَدُّ رَبِّنَا مَا ٱتَّخَذَ صَٰحِبَةٗ وَلَا وَلَدٗا ٣﴾ [الجن: ٣].

٥ ـ اتِّخاذهم قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، وبسبب ذلك استحقُّوا اللَّعنة من الله تعالى، وقد حذَّر النَّبيُّ ﷺ أمَّته مِن ذلك في غير موطن، حتَّى في وقت مفارقته الدُّنيا، ففي «الصَّحيحين» عن عائشة رضي الله عنها قالت: قَالَ رَسُول الله ﷺ ـ فِي مَرَضِهِ الَّذِي لَمْ يَقُمْ مِنْهُ ـ: «**لَعَنَ اللهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» لَوْلَا ذَلِكَ أُبْرِزَ قَبْرُهُ، غَيْرَ أَنَّهُ خَشِيَ ـ أَوْ خُشِيَ ـ أَنَّ يُتَّخَذَ مَسْجِدًا»[٥]، وعن عَائِشَةَ وَعَبْدِ الله بْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهم قَالَا: «لَمَّا نَزَلَ بِرَسُولِ الله ﷺ طَفِقَ يَطْرَحُ خَمِيصَةً لَهُ عَلَى وَجْهِهِ، فَإِذَا اغْتَمَّ بِهَا كَشَفَهَا عَنْ وَجْهِهِ، فَقَالَ ـ وَهوَ كَذَلِكَ ـ: «**لَعْنَةُ الله عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**» يُحَذِّرُ مَا صَنَعُوا»[٦].

وروى سعيد بن منصور في «سننه»، وابن أبي شيبة في «المصنَّف» عن المعْرُور بن سُوَيْد قال: خرجنا مع عمر في حجَّة حجَّها، فقرأ بنا في الفجر بـ: ﴿أَلَمۡ تَرَ كَيۡفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصۡحَٰبِ ٱلۡفِيلِ ١﴾ و﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيۡشٍ ١﴾ في الثَّانية، فلمَّا رجع مِن حجَّته رأى النَّاس ابتدروا المسجد، فقال: ما هذا؟ فقالوا: مسجدٌ صلَّى رسول الله ﷺ فيه، فقال: «هكذا هلك أهل الكتاب قبلكم، اتَّخذوا آثار أنبيائهم بِيَعًا، مَن عرضت له منكم الصَّلاة فيه فَلْيُصَلِّ، ومَن لم تعرض له الصَّلاة فَلْيَمْضِ»[٧].

فقد أنكر أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه على النَّاس اتِّخاذ مُصلَّى النَّبيِّ ﷺ عِيدًا، وبيَّن لهم علَّة هذا الإنكار، وهو أنَّ أهل الكتاب إنَّما هلكوا بمثل هذا الصَّنيع، حيث كانوا يتَّبعون آثار أنبيائهم، ويتَّخذونها أماكن للعبادة ـ كنائس وبِيَعًا ـ.

٦ ـ اتِّخاذهم قبور أنبيائهم أعيادًا، يقصدونها في أوقات معيَّنة، ومواسم معروفة، للتَّعبُّد عندها، وقد نهى نبيُّنا ﷺ عن التَّشبُّه بهم؛ روى أحمد ـ في «مسنده» ـ عَن أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**لَا تَتَّخِذُوا قَبْرِي عِيدًا، وَلَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا، وَحَيْثُمَا كُنْتُمْ فَصَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي**»[٨]، قال شيخ الإسلام ابن تيميَّة: «ووجه الدِّلالة: أنَّ قبر النَّبيِّ ﷺ أفضل قبر على وجه الأرض، وقد نهى عن اتِّخاذه عيدًا، فقبر غيره أولى بالنَّهي كائنًا مَن كان، ثمَّ قرن ذلك بقوله ﷺ: «**وَلَا تَتَّخِذُوا بُيُوتَكُمْ**

قُبُورًا» أي: لا تعطِّلوها عن الصَّلاة فيها، والدُّعاء والقراءة فتكون بمنزلة القبور، فأَمَرَ بتحرِّي العبادة في البيوت، ونهى عن تحرِّيها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون مِن النَّصارى ومَن تشبَّه بهم»[٩].

واعلم أنَّ العيد: اسم لما يعود ويتكرَّر، وقيل: مأخوذ من العادة، وكأنَّهم اعتادوه، وقد يختصُّ العيد بمكان بعينه، وإذا جُعل اسمًا للمكان، فهو المكان الذي يُقصد الاجتماع فيه وإتيانه للعبادة عنده، أو لغير العبادة؛ فإنَّ اعتياد قصد المكان المعيَّن في وقت معيَّن، عائد بعود السَّنة أو الشَّهر أو الأسبوع: هو بعينه معنى العيد، ويدلُّ على هذا ما رواه أبو داود عن ثَابِت بْن الضَّحَّاكِ قَالَ: نَذَرَ رَجُلٌ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ الله ﷺ أَنْ يَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَأَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنِّي نَذَرْتُ أَنْ أَنْحَرَ إِبِلًا بِبُوَانَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ كَانَ فِيهَا وَثَنٌ مِنْ أَوْثَانِ الجَاهِلِيَّةِ يُعْبَدُ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ: «هَلْ كَانَ فِيهَا عِيدٌ مِنْ أَعْيَادِهِمْ؟» قَالُوا: لَا، قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «أَوْفِ بِنَذْرِكَ، فَإِنَّهُ لاَ وَفَاءَ لِنَذْرٍ فِي مَعْصِيَةِ الله، وَلَا فِيمَا لَا يَمْلِكُ ابْنُ آدَمَ»[١٠].

٧ ـ تعظيمهم الصُّور الَّتي في كنائسهم، وجعلها على صورة مَن يعبدونه بالباطل، ثمَّ عبادتهم لها من دون الله تعالى؛ وبصنيعهم هذا صاروا شرَّ البريَّة؛ ففي «الصَّحيحين» من حديث عائشة رضي الله عنها أنَّ أمَّ سلمة وأمَّ حبيبة رضي الله عنهما ذَكَرَتَا لرسول الله ﷺ كنيسة رأينها بأرض الحبشة يقال لها: «مارية» وذَكَرَتَا مِن حسنها وتصاوير فيها، فقال رسول الله ﷺ: «**أُولَئِكَ قَوْمٌ إِذَا مَاتَ فِيهِمُ العَبْدُ الصَّالِحُ أَوِ الرَّجُلُ الصَّالِحُ بَنَوْا عَلَى قَبْرِهِ مَسْجِدًا، وَصَوَّرُوا فِيهِ تِلْكَ الصُّوَر، أُولَئِكَ شِرَارُ الخَلْقِ عِنْدَ الله يَوْمَ القِيَامَةِ**»[١١].

٨ ـ إحداثهم لرهبانيَّة ما فرضها الله عليهم، ولا شَرَعَها لهم، ولا تعبَّدهم بها، ولكنَّهم التزموها مِن تلقاء أنفسهم، وابتداع أمَّة النَّصارى لها كان بدافع طلب رضوان الله ـ زعموا ـ ومع ذلك لم يقوموا بها، ولكنَّهم بدَّلوا، وخالفوا دين الله الذي بعث به عيسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿**ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ ءَاثَٰرِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ رِضْوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا**﴾ [الحديد: ٢٧].

وقوله: ﴿**وَرَهْبَانِيَّةً**﴾ ليس معطوفًا على ما قبله: ﴿**رَأْفَةً وَرَحْمَةً**﴾، وإنَّما انتصب بفعل مُضمر، فكأنَّه قيل: «وابتدعوا رهبانيَّةً» أي: جاءوا بها مِن قِبَل أنفسهم، لم يأمرهم الله بها، والاستثناء في قوله: ﴿**مَا**

﴿كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ﴾ استثناء منقطع، والتَّقدير: «ما كتبناها عليهم، ولكن ابتدعوها ابتغاء رضوان الله»[١٢].

عن قتادة قال ـ في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ ـ فهاتان مِن الله، والرَّهبانيَّة ابتدعها قوم مِن أنفسهم ولم تُكتب عليهم، ولكن ابتغوا بذلك وأرادوا رضوان الله، فما رعوها حقَّ رعايتها؛ ذُكر لنا أنَّهم رفضوا النِّساء، واتَّخذوا الصَّوامع»[١٣].

وليس في الآية القرآنيَّة السَّابقة ثناءٌ ولا مدحٌ لأولئك القوم، بل هي ذمٌّ لهم مِن وجهين:

أحدهما: في الابتداع في دين الله ما لم يأمر به الله.

والثَّاني: في عدم قيامهم بما التزموه، ممَّا زعموا أنَّه قربة، يقرِّبهم إلى الله عزَّ وجلَّ[١٤].

وهذه الحال هي الغالب مِن أحوالهم[١٥].

والرَّهبانيَّة ـ لغةً ـ: من الرَّهبة، وهي الخوف مِن غير طمع، والفزع مع تحرُّزٍ واضطرابٍ، ومنها الرَّاهب: وهو المتعبِّد في صومعةٍ من النَّصارى، يتخلَّى عن أشغال الدُّنيا وملاذها، زاهدًا فيها، معتزلًا أهلها[١٦].

قال ابن الأثير: «هي مِن رهْبَنَة النَّصارى، وأصلُها: من الرَّهْبة: الخَوف؛ كانوا يترَهَّبون بالتَّخلِّي مِن أشْغال الدُّنْيا، وتَرْكِ مَلاَذها والزُّهْد فيها، والعُزْلة عن أهْلها، وتعمُّد مشاقِّها، حتَّى إنَّ منهم مَن كان يَخْصي نفسَه، ويضعُ السِّلْسِلة في عُنُقه، وغير ذلك مِن أنواعِ التَّعذيب، فنفاها النَّبيُّ ﷺ عن الإسلام، ونهَى المُسْلمين عنها»[١٧].

والمراد مِن الرَّهبانيَّة: ترهُّبُهم في الجبال، وتعبُّدهم في الغيرانِ والكهوف، بزعم الفرار مِن الفتنة في الدِّين، محمِّلين أنفسهم ألوانا من المشاقِّ، ومتحمِّلين كلفًا زائدة على العبادات التي كانت واجبة عليهم؛ مِن الخلوة واعتزال النَّاس، ولُبس الخَشِن من الثِّياب وارتداء المسوح، والامتناع مِن المطعم الطيِّب و أكل اللَّحم، وتحريم النِّكاح المباح باعتزال النِّساء، والمبالغة في العبادة بمواصلة الصَّوم؛ وهذا كلُّه بحجَّة الزُّهد في متاع الحياة الدُّنيا[١٨].

وفي هذه التَّصرُّفات تعذيب لأبدانهم، وفي عزوفهم عن الطَّعام والنَّوم رهبانيَّة، لا تُمَثِّلُ الدِّين ولا تَمْتَثِلُ له، ومِن نتائجها السَّيِّئة، وآثارها المذمومة أنْ يُنحل الجسم، ويُضعف القوَّة، فيقعد أحدهم عن العمل، فلا يضرب في الأرض بالسَّعي طلبا للرِّزق والمعاش، متظاهرًا بالتَّنسُّك والتَّعبُّد، مدَّعيًا



التَّزهُّد في الدُّنيا، حيث يصبح عالة على غيره، فيمدُّ يده بالسُّؤال، تردُّه اللُّقمة واللُّقمتان، وأمَّا عن تركهم للزَّواج، فيقال لهم: لو لم يكن فيه إلَّا تحصين الفرج، وطلب الولد الصَّالح الَّذي يدعو لوالديه بعد وفاتهما، ويقوم عليهما في حياتهما: لكان ذلك كافيًا.

وهؤلاء الذين حرَّموا على أنفسهم الطَّيِّبات، ومنعوها من الملاذ، وما فُطرت عليه مِن الزَّواج، وطيِّب الملبس والمأكل، ينظرون إلى هذه المباحات على أنَّها رِجْس من عمل الشَّيطان يجب اجتنابه؛ ويرون الجسد سجنًا للرُّوح، يحول بينها وبين أشواقها العالية، لذا قاموا على إرهاقه وتعذيبه بألوان من العذاب، حتَّى تحوَّل إلى شبح هزيل، يسكن المغاور والكهوف، وينفر مِن كلِّ الصِّلات الإنسانية وبسبب إفراطهم وغلوّهم ضلُّوا عن سواء السَّبيل.

وقد كان النَّبيُّ ﷺ يكره مشابهة أهل الكتاب في هذه الآصار والأغلال، وزجر أصحابه عن التَّبتُّل، وقال فيما يعيب أهل الكتاب، ويحذِّر موافقتهم: «**لَا تَشَبَّهُوا بِاليَهُودِ وَلَا بِالنَّصَارَى**»[19]، وقال: «**إِنِّي لَمْ أُومَرْ بِالرَّهْبَانِيَّة**»[20].

ومِن ذلك تحذيره ﷺ من اتِّباعهم في ترك الزَّواج، كما في حديث أبي أمامة ـ مرفوعًا ـ: «**تَزَوَّجُوا فَإِنِّي مُكَاثِرٌ بِكُمُ الأُمَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ، وَلَا تَكُونُوا كَرَهْبَانِيَّةِ النَّصَارَى**»[21].

ومِن ذلك: نهيه ﷺ عن تقليدهم في التَّشدُّد في الدِّين، إذْ قال: «**لَا تُشَدِّدُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ بِتَشْدِيدِهِمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ، وَسَتَجِدُونَ بَقَايَاهُمْ فِي الصَّوَامِعِ وَالدِّيَارَاتِ**»[22].

ففي هذا الحديث نهي النَّبيِّ ﷺ عن التَّشدُّد في الدِّين بالزِّيادة على المشروع والتَّشديد؛ تارة يكون باتِّخاذ ما ليس بواجب ولا مستحب بمنزلة الواجب والمستحبِّ في العبادات؛ وتارة باتِّخاذ ما ليس بمحرَّم ولا مكروه بمنزلة المحرَّم والمكروه في الطَّيِّبات؛ وعلَّل ذلك بأنَّ الَّذين شدَّدوا على أنفسهم ـ مِن النَّصارى ـ شدَّد الله عليهم لذلك، حتَّى آل الأمر إلى ما هم عليه مِن الرَّهبانيَّة المبتدعة[23].

ومِن ذلك ـ أيضًا ـ ما في «الصَّحيحين» عن أنس بن مالك قال: «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النَّبيِّ ﷺ يسألون عن عبادة النَّبيِّ ﷺ فلمَّا أُخبروا كأنَّهم تَقَالُّوهَا، فقالوا: وأين نحن مِن النَّبيِّ ﷺ وقد غَفَر له الله ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر؟ فقال أحدهم: أمَّا أنا فأصلِّي اللَّيل أبدًا، وقال الآخر: أنا أصوم الدَّهر أبدًا، وقال الآخر: أنا أعتزل النِّساء،

فلا أتزوَّج أبدًا» [هذا لفظ البخاري، ورواية مسلم: «سألوا أزواج النَّبيِّ ﷺ عن عمله في السِّرِّ، فقال بعضهم: لا أتزوَّج النِّساء، وقال بعضهم: لا آكل اللَّحم، وقال بعضهم: لا أنام على فراش»] فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: «**أَنْتُمُ الَّذِينَ قُلْتُمْ كَذَا وَكَذَا ؟ أَمَا وَاللهِ إِنِّي لَأَخْشَاكُمْ للهِ وَأَتْقَاكُمْ لَهُ، وَلَكِنِّي أَصُومُ وَأُفْطِرُ، وَأُصَلِّي وَأَرْقُدُ، وَأَتَزَوَّجُ النِّسَاءَ، فَمَنْ رَغِبَ عَنْ سُنَّتِي فَلَيْسَ مِنِّي**»[٢٤].

والأحاديث الموافقة لهذه كثيرة في بيان أنَّ سنَّته ﷺ الاقتصاد في العبادة، وفي ترك الشَّهوات؛ وهي خيرٌ من رهبانيَّة النَّصارى، الَّتي فيها ترك عامَّة الشَّهوات ـ مِن النِّكاح وغيره ـ، والغلوّ في العبادات ـ صومًا وصلاةً ـ[٢٥].

ورهبانيَّة الإسلام: هي الجهاد في سبيل الله تعالى، لما أخرجه أحمد عن أبي سعيد الخدري: أنَّ رجلًا جاءه فقال: أَوْصِني، فقال: سألتَ عمَّا سألتُ عنه رسولَ الله ﷺ مِن قبلك، فقال: «**أُوصِيكَ بِتَقْوَى اللهِ؛ فَإِنَّهُ رَأْسُ كُلِّ شَيْءٍ، وَعَلَيْكَ بِالجِهَادِ؛ فَإِنَّهُ رَهْبَانِيَّةُ الإِسْلَامِ، وَعَلَيْكَ بِذِكْرِ اللهِ وَتِلَاوَةِ القُرْآنِ؛ فَإِنَّهُ رُوحُكَ فِي السَّمَاءِ، وَذِكْرُكَ فِي الأَرْضِ**»[٢٦].

وهذه الرَّهبانيَّة الَّتي نذرها النَّصارى لله بالانقطاع عن اللَّذائذ، وإعنات النَّفس، والامتناع عن كثير من الطَّيِّبات، وإحداث أمور جعلوها من الدِّين؛ عُدَّت كلّها عبادات، وذلك لأنَّ أصحابها إنَّما يفعلونها بقصد التَّقرُّب إلى الله زعموا.

قال شيخ الإسلام ابن تيميّة ـ رحمة الله عليه ـ: «كما أنَّ النَّصارى يفعلون مثل هذا السَّماع في كنائسهم على وجه العبادة والطَّاعة، لا على وجه اللَّهو واللَّعب... ومِن المعلوم أنَّ الدِّين له أصلان: فلا دين إلَّا ما شرع الله، ولا حرام إلَّا ما حرَّمه الله؛ والله تعالى عاب على المشركين أنَّهم حرَّموا ما لم يحرِّمه الله، وشرعوا دينًا لم يأذن به الله، ولو سئل العالم عمَّن يَعْدُو بين الجبلين، هل يُباح له ذلك؟ قال: نعم، فإذا قيل: إنَّه على وجه العبادة كما يسعى بين الصَّفا والمروة ؟ قال: إنْ فعله على هذا الوجه: فهو حرام مُنكر، يُسْتَتَاب فاعله فإنْ تاب وإلَّا قتل، ولو سئل عن كشف الرَّأس، ولُبس الإزار والرِّداء؟ أفتى بأنَّ هذا جائز، فإذا قيل: إنَّه يفعله على وجه الإحرام كما يحرم الحاجّ؟ قال: إنَّ هذا حرام منكر، ولو سئل عمَّن يقوم في الشَّمس؟ قال: هذا جائز، فإذا قيل: إنَّه يفعله على وجه العبادة؟ قال: هذا منكر، كما روى البخاري عن ابن عبَّاس

رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ رأى رجلًا قائمًا في الشَّمس فقال: «**مَنْ هَذَا؟**» قالوا: هذا أبو إسرائيل، نذر أنْ يقوم في الشَّمس، ولا يقعد، ولا يستظلَّ، ولا يتكلَّم، فقال النَّبيُّ ﷺ: «**مُرُوهُ فَلْيَتَكَلَّمْ، وَلْيَجْلِسْ، وَلْيَسْتَظِلَّ وليُتِمَّ صَوْمَهُ**»[٢٧]، فهذا لو فعله لراحة، أو غرض مباح لم يُنْهَ عنه، لكن لما فعله على وجه العبادة نُهي عنه»[٢٨].

وهذه الرَّهبانيَّة تشدُّد، وغلوٌّ في الدِّين، وقد نهى رسولنا ﷺ أمَّته عن ذلك، وأمرهم بما جاءت به الحنيفيَّة مِن مخالفة اليهود فيما أصابهم مِن القسوة عن ذكر الله وعمَّا أُنزل، ومخالفة النَّصارى فيما هم عليه مِن الرَّهبانيَّة المبتدعة؛ فعن أبي العالية قال: «قال لي ابن عبّاس رضي الله عنهما: قال لي رسول الله ﷺ ـ غداة العقبة ـ: «**هَاتِ الْقُطْ لِي حَصَيَاتٍ مِنْ حَصَى الخَذْف**»، فلمَّا وُضعن في يده قال: «**بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، بِأَمْثَالِ هَؤُلَاءِ، وَإِيَّاكُمْ وَالغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِالغُلُوِّ فِي الدِّينِ**»[٢٩].

قوله ﷺ: «**إِيَّاكُمْ والغُلُوَّ فِي الدِّينِ**»، وسبب هذا اللَّفظ العام رمي الجمار، وهو داخل فيه، فالغلوُّ فيه مثل الرَّمي بالحجارة الكبار بناءً على أنَّه أبلغ مِن الحصى الصِّغار، والنَّهي هنا ـ وإن كان سببه خاصًّا ـ: فهو نهيٌ عن كلِّ غلوٍّ، أي: نهي عامٌّ عن جميع أنواع الغلوِّ، في الاعتقاد والأعمال؛ لأنَّ «العبرة بعموم اللَّفظ، لا بخصوص السَّبب».

والغلوُّ: مجاوزة الحدِّ، بأنْ يُزاد الشَّيء في حمده أو ذمِّه على ما يستحقُّ، والنَّصارى أكثر غلوًّا في الاعتقادات والأعمال مِن سائر الطَّوائف، وإيَّاهم نهى الله عن الغلوِّ في القرآن، في قوله تعالى: ﴿**يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ**﴾ [النساء: ١٧١][٣٠].

أمَّا أمَّة محمَّد ﷺ، فدينها خير أديان البريَّة دينًا، وأحبُّها إلى الله تعالى ؛ فعن ابن عبّاس رضي الله عنه قال سُئل النَّبيُّ ﷺ: «أيُّ الأديان أحبُّ إلى الله عزَّ وجلَّ؟» قال: «**الحَنِيفِيَّةُ السَّمْحَةُ**»[٣١].

وهذه الأمَّة؛ أمَّة الوسط والعدل ، إذْ لا إفراط عندها ولا تفريط، كونها لم تَغْلُ غُلُوَّ النَّصارى، ولم تُقَصِّر تقصير اليهود؛ ودين الله تعالى بين الغالي فيه، والجافي عنه.

ولهذا استحقَّت مدح الله تعالى لها، ومزيد ثنائه عزَّ وجلَّ: ﴿**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا**﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقوله: ﴿**أُمَّةً وَسَطًا**﴾ أي: عُدُولًا،

خيارًا[32] كما في قوله سبحانه: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: ١١٠]

---

(١) «حلية الأولياء» لأبي نعيم (٨/ ٩٥).

(٢) الترمذي (٣٠٩)، والبخاري في «التَّاريخ» (٤/ ١/ ١٠٦)، والزِّيادتان له؛ والحديث في «سلسلة الأحاديث الصَّحيحة»: (٣٢٩٣).

(٣) البخاري (٣٤٤٥).

(٤) «مجموع الفتاوى» (١٠/ ٦٤٢).

(٥) البخاري (٥٥٤)، مسلم (٥٣٠).

(٦) البخاري (٤٢٥)، مسلم (١٢١٥).

(٧) «مصنَّف ابن أبي شيبة» (٧٥٥٠)، وصحَّحه الألباني في: «تحذير السَّاجد مِن اتِّخاذ القبور مساجد» (ص٨٢).

(٨) «المسند» (٨٧٩٠)، وأخرجه أبو داود (١/ ٣١٩)، وصحَّحه الألباني في «صحيح أبي داود» (١٧٩٦).

(٩) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (ص٣٢٣).

(١٠) «سنن أبي داود» (٣٣١٣)، وهو في «صحيح أبي داود» (٢٨٣٤)، بُوانَة: هَضْبَة وراء يَنْبُع.

(١١) البخاري (٣٦٦٠)، مسلم (٥٢٨).

(١٢) «تفسير القرطبي» (١٧/ ٢٦٣).

(١٣) «تفسير الطَّبري» (٢٣/ ٢٠٣).

(١٤) «تفسير ابن كثير» (٨/ ٢٩).

(١٥) «تفسير السَّعدي» (٨٤٢).

(١٦) «الموسوعة الفقهيّة» (٢/ ٨٠٩٣).

(١٧) «النِّهاية في غريب الحديث والأثر» (٢/ ٦٦٩).

(١٨) «تفسير البغوي» (٨/ ٤٢).

(١٩) أخرجه الترمذي (٢٦٩٦)، انظر: «الصَّحيحة» (٢١٩٤).

(٢٠) أخرجه الدَّارمي (٢/ ١٣٢)، وهو في «الصَّحيحة» (٣٩٤).

(٢١) البيهقي في «السُّنن الكبرى» (٧/ ٧٨)، وهو في «السِّلسلة الصَّحيحة»: (١٧٨٢).

(٢٢) أخرجه البخاري في «التَّاريخ»، وهو في «الصَّحيحة»: (٣١٢٤).

(٢٣) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (ص٢٤٨).

(٢٤) البخاري (٥٠٦٣)، ومسلم (١٤٠١).

(٢٥) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (٢٥٠ ـ ٢٥١).

(٢٦) «المسند» (٣/ ٨٢)، وهو في «الصَّحيحة» (٥٥٥).

(٢٧) «صحيح البخاري» (٦٣٢٦).

(٢٨) «مجموع الفتاوى» (١١/ ٦٣١ ـ ٦٣٢).

(٢٩) أخرجه ابن خزيمة (٢٨٦٧)، والحاكم في «المستدرك» (١٧١١)، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشَّيخين و لم يخرِّجاه»، و هو مخرَّج في «الصَّحيحة» (١٢٨٣).

(٣٠) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» (ص٢٥٣ ـ ٢٥٤).

(٣١) «صحيح الأدب المفرد» (٢٢٠ / ٢٨٧).

(٣٢) الطَّبري (٣ / ١٤٥)، ابن كثير (٥ / ٤٥٧).

فتاوى شرعية

د/محمد علي فركوس

في حكم الإقامة في بلد الكفر للحاجة

* السؤال:

أَجْرَت أختٌ عقدَها الشَّرعيَّ والمدنيَّ مع أخٍ مسلمٍ وُلد في فرنسا وله جنسيَّةٌ فرنسيَّة، ومن أسباب بقائه هناك تكفُّله بأُمِّه المريضة، كما أنَّه وَعَدَها بتغيير إقامته إلى بلد مسلم، فهل يجوز له الإقامة في بلاد الكفر والحالة كذلك؟ وهل يجوز لها مرافقته مع العزم على الرَّحيل متى تهيَّأت الظُّروف؟ وجزاكم الله خيرًا.

* الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فلا يساورنا شَكٌّ في خطورة الإقامةِ والحلول في بلدان الكفر على دين المسلم وأخلاقه وسلوكه، والقول بعدم جواز السَّفر إلى بلدان الكفر والإقامة بين ظهور المشركين لمن لا يأمن الفتنة، أو لا معرفة له بدينه، أو لا يستطيع أن يُظهر شعائرَ الدِّين ويجهر بها على وجه الكمال هو القول الأسلم لدينه والأحفظ له من انصهار شخصيَّته في المجتمع الكفريِّ والهُوِيِّ به في مهالكه ومفاسده، أمَّا إذا تمكَّن المسلم من إظهار دينه وشعائره، والجهر بها: من إقامة الصَّلوات والصِّيام والحجِّ والجمعة والجماعات وغيرها من شعائر الإسلام وقدر على الولاء والبراء، متجنِّبًا موالاةَ الكفَّار ومحبَّتَهم، بل

يبقى مُضمرًا لبغضهم ولعداوتهم وعدم الرِّضى بأفعالهم؛ لأنّ محبَّة أعداء الله تستلزم موافقتهم واتِّباعَهم والرِّضى بفعلهم، وهذا كما لا يخفى منافٍ لعقيدة الولاء والبراء، وهي أوثق عُرَى الإسلام قال تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»(١)، وقال ﷺ ـ أيضًا ـ «المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ»(٢) ، كما يكون المسلم المقيم ببلاد الكفر له معرفةٌ بأحكام دِينِه ما يكفيه للحفاظ عليه والأمن من الفتنة، والانحراف عن جادَّة الطريق، وعليه فإنْ تحقَّقت هذه الضَّوابط فيباح له الإقامة بقدر حاجة أُمِّه إلى العلاج؛ لأنَّ القائم على المريض في حكمه، أي تنصرف أحكامه إليه، وخاصَّة إن كان مُسْتَضْعَفًا تحول دون ترك تلك البلدان الظُّروفُ الصِّحِّيَّة والجغرافيَّة والسِّياسيَّة.

والزَّوجة في حكم زوجها؛ لأنَّها تابعةٌ له، و«التَّابِعُ تَابِعٌ»، ومن حقِّها أن تشترط عليه حالَ العقد عدم السَّفر بها إلى هذه البلدان، فإنَّ «المُسْلِمُونَ عَلَى شُرُوطِهِمْ»(٣).

ثمَّ ينبغي أن يُعلَمَ أنَّ الإقامة السَّكنيَّة غيرَ المقرونة بالضَّرورة الشَّرعية أو الحاجة الشَّرعية من أعظم المفاسد وأخطر المهالك على دين المسلم؛ ذلك لأنَّ المساكنة تدعو إلى المشاكلة، ومشاكلة الكفَّار في عاداتهم وأخلاقهم وسلوكهم وطبائعهم مع ما يعلنونه من حكمٍ بغيرِ ما أنزل اللهُ وغيرِها من الشَّعائر الشِّركية، الأمر الذي قد يفضي بالمسلم إلى مماثلتهم كما صَرَّح النَّبيُّ ﷺ بقوله: «مَنْ جَامَعَ المُشْرِكَ وَسَكَنَ مَعَهُ فَإِنَّهُ مِثْلُهُ»(٤)، والحديث وإن كان ضعيفًا ـ عند بعض أهل الحديث ـ إلَّا أنَّ معناه صحيحٌ من ناحية أنَّ «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ» وكذلك من رَضِيَ وأحبَّ.

قال ابن تيمية رحمه الله: «وهذا الحديث أقل أحواله أن يقتضي تحريم التَّشبُّه بهم، وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبّه بهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]»(٥)، والعلمُ عند الله تعالى.

في حكم

لُبس قميص رياضي لفريق أوروبي

* السؤال:

هل يجوز لبس قميص رياضي لفريق أوروبي بعد طمس العلامة الدَّالَّة على الفريق؟



* الجواب:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله الله رحمةً للعالمين وآله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فاعلم ـ وفَّقك الله ـ أنَّ التَّشبُّه بالكفَّار فيما هو من خصائصهم يعدُّ من مظاهر موالاتهم سواء كان التَّشبُّه بهم في عباداتهم كشعائر دينهم أو من عاداتهم وأنماط حياتهم وسلوكهم وسمتهم وأخلاقهم كحلق اللِّحية وإطالة الشَّارب، أو كهيئة لباسهم، أو أسلوب كلامهم، ورطانة لغتهم إلَّا ما استثنته الحاجة، أو طريقة أكلهم، وشربهم الَّتي يعرفون بها، فإنَّ ذلك من التَّشبُّه الَّذي ورد فيه النَّهي في قوله ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[٦]، ولا يخرج عن هذا المعنى لُبس القميص الرِّياضي الَّذي يحمل شعار فريق أوروبي من الأندية الكافرة، وإن طمست العلامة الدَّالة على الفريق مادام معروفًا عند النَّاس بشكله وألوانه أنَّه من ذلك النَّادي الكافر فهو قميصٌ معدود من خصائصهم.

فالحاصل أنَّ التَّشبُّه بهم في المظهر فيما فعلوه على خلاف مقتضى شرعنا أو كان من خصائصهم دينًا ودنيا فإنَّ ذلك يدلُّ على محبَّتهم في المخبر، وقد حرَّم الله على المؤمن اتِّخاذ الكفَّار أولياء ومودَّتهم، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ﴾ [الممتحنة: ١]، وقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ۝٥١﴾ [المائدة: ٥١]، والعلم عند الله تعالى.

في حكم
الزواج من نصراني تُرجى هدايته

* السؤال:

أنا شابَّة جزائريَّة مسلمةٌ تعرَّفت على شابٍّ فرنسيٍّ مسيحيٍّ طيِّب الخُلُقِ والسُّلوك يريد الزَّواج منِّي؛ فهل عندما يصير مسلمًا يحقُّ لي الزَّواج معه؟

* الجواب:

الحمد لله ربِّ العالمين والصَّلاة والسَّلام على من أرسله الله رحمةً للعالمين وعلى آله وصحبه

وإخوانه إلى يوم الدِّين أمَّا بعد:

فاعلمي ـ وفَّقك الله إلى كلِّ خير ـ أنَّه يحرم زواج المرأة المسلمة بالكافر إجماعًا[7] لما في ذلك من الغضاضة على الإسلام والابتذال الَّذي يأباه الشَّرع، كما لا يجوز إقامة علاقة صداقة ومودَّة مع رجل أجنبيٍّ بَلْهَ كافر لما في ذلك من الاختلاط المؤدِّي إلى الفتنة والفساد إلَّا أنَّه إذا كان الكافر أسلم عن اقتناع واعتقادٍ، وحَسُنَ إسلامه بظهور الأعمال الصَّالحات في سيرته وسلوكه، فإنَّه يجوز له أن يتقدَّم لطلب الزَّواج من وليِّ أَمْرِكِ، وعليه أن يختار لكِ أهلَ الكفاءة، هذا كلُّه إذا ما تحقَّق في نيَّته الصَّادقة بما يشفع له من الدَّوام على الصَّالحات الَّتي يعملها بعد فترة من إسلامه.

وأخيرًا اعلمِي أنَّ الخيرية في أهل الإيمان الصَّادق ولا خير في مَنْ لا يدين بدين الإسلام مهما سَمَا خلقه وأعجبك حَسَبُه ومالُه لقوله تعالى: ﴿وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٢١]، أي ذلك المشرك ولو أعجبكم خلقه وسيرته وأمواله فإنَّه يدعو إلى الأعمال الموجبة للنَّار، بسبب معاشرته وصحبته ﴿وَاللَّهُ يَدْعُوا إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة: ٢٢١]، والعلم عند الله.

في حكم
التحدث بغير اللغة العربية

* السؤال:

نحن في البيت غالب مُحَادَثَاتِنَا تقع باللُّغة الفرنسية ولا نتكلَّم بالعربية إلَّا نادرًا، فهل التَّكلُّم بغير العربية حرام؟

* الجواب:

الحمد لله ربِّ العالمين، والصَّلاة والسَّلام على من أرسله الله رحمةً للعالمين، وعلى آله وصحبه وإخوانه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فالأصل عدمُ جواز التَّشبُّه باليهود والنَّصارى والأعاجم ووجوبُ مخالفتهم؛ للنُّصوص الكثيرة الواردة في هذا الشَّأن، ومن آحاده التَّحدُّث بلغتهم وتقليدهم في نبراتهم وحركاتهم حال التَّحدُّث بها، فإنَّ ذلك مُشْعِرٌ بمودَّتهم وميلِ القلب إليهم؛ لأنَّ الظَّاهر يعطي نسبًا وتشاكلًا بما يحصل في الباطن، كما قرَّره شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ الله غير أنَّه ـ استثناءً من هذا الأصل ـ يجوز التَّكلُّم بها للحاجة كما يجوز تعلُّم لغة الأعاجم وكتابتهم والاستفادة



من علومهم ونقلها إلى اللُّغة العربيَّة لأمن مَكْرِهم وشرِّهم لقوله ﷺ لزيد بن ثابت رضي الله عنه: «تَعَلَّمْ كِتَابَ اليَهُودِ، فَإِنِّي لَا آمَنُهُمْ عَلَى كِتَابِنَا»[٨].

هذا، ويَجْدُرُ التَّنبيه إلى أنَّ تعلُّم لغة الأعاجم إنَّما تكون للعلَّة السَّابقة، أمَّا أن تجعل نمط حياة المسلمين في خطاباتهم ومراسلاتهم في سائر شؤون الحياة فلا يجوز ذلك البَتَّة، واستبدال الأعجمية بالعربيَّة استبدال الأدنى بالَّذي هو خير، وهو نوع من الولاء لأهل الكفر مذمومٌ شرعًا على ما نصَّت عليه النُّصوص القرآنيَّة في شأن الولاء والبراء، وهما أوثق عرى الإسلام، والعلم عند الله.

في شروط السَّفر إلى بلاد الكفر

* السُّؤال:

ما هي شروط السَّفر إلى بلاد الكفر من أجل الدِّراسة؟ وبارك الله فيكم.

* الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبِهِ وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فيُجَوِّز أهل العلم السَّفر إلى بلاد الكفر لغرضٍ دعويٍّ أو دنيويٍّ بشرط: أن يكون عارفًا بدينه، آمنًا على إيمانه وإسلامه، قادرًا على الجهر بشعائر الإسلام، وأدائها على وجه التَّمام لا يمنعه من ذلك مانع من التزام الهدي المستقيم في هيئته وملبسه وعموم ظاهره المخالف لمظاهر المشركين، قادرًا على التزام عقيدة الولاء والبراء الَّتي هي لازم من لوازم الشَّهادة وشرط من شروطها، فمن حقوقِ البراءِ بُغْضُ أهل الشِّرك والكفر وأهلِه، وعدمُ التَّشبُّه بهم فيما هو من خصائصهم دينًا ودنيًا، أو مشاركتِهم في أفراحهم وأعيادِهم، ولا تهنئتِهم عليها، وعدمُ اتِّخاذِهم أولياءَ ومودَّتِهم، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]، ومن ذلك أيضًا عدمُ مداهنتِهم والتَّحاكمِ إليهم والرِّضى بحكمِهم، وتركِ حكمِ الله تعالى، وعدمُ بدئهم بالسَّلام، ولا تعظيمِهم بلفظٍ أو فعلٍ.

فالحاصل: عدمُ التَّولِّي العامِّ لهم، ويحصل ذلك بموالاتهم في الظَّاهر والباطن، فمن لم يستطع أن يجهرَ بالشَّعائر على وجه التَّمامِ أو لم يكن آمنًا على دينه فإنَّ سفرَه محرَّمٌ، ويُعدُّ كبيرةً من الكبائر، أمَّا إن جَعَلَ

سفرَه محبَّةً لأهلِ الكفر وموالاةً لهم في الظَّاهرِ والباطنِ اسْتِحْسَانًا لما هم عليه؛ فهو كَافِرٌ خارجٌ عن مِلَّةِ الإسلامِ لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١].

والعلمُ عند الله تعالى.

في حكم الوجبات الغذائيَّة الخاصَّة بالأعياد البدعية

* السُّؤال:

نحن طلبةَ الجامعات والمعاهدِ، نقيمُ في الأحياء الجامعيَّة، ونستفيدُ من الخَدَمات المقدَّمة لنا طيلةَ السَّنَةِ، من الإيواء والمأكل وغيرِ ذلك، وقد جرت العادة في المواسم والمناسبات كالأعياد الوطنيَّة والدِّينيَّة وغيرِها، ومنها: رأس السَّنة الميلاديَّة، أن تقوم الإدارة بتحسين وجبات الغداء والعشاء، وقد وقع للبعض حرجٌ في تناولها، ممَّا أدَّى إلى خلافٍ وانقسامٍ بين الطَّلبة ما بين ممتنعٍ رافضٍ لهذا النَّوع الخاصِّ من الوَجَبات، وبين من لا يرى بأسًا في تناولها بحُجَّة أنَّه غيرُ قاصدٍ للاحتفال بهذه المناسبة، وهو معتاد للأكل في هذه المطاعم وليس له غيرها، أفتونا مأجورين وبارك الله فيكم.

* الجواب:

الحمدُ لله ربِّ العالمين، والصَّلاةُ والسَّلامُ على مَنْ أرسله اللهُ رحمةً للعالمين، وعلى آله وصَحْبِهِ وإخوانِه إلى يوم الدِّين، أمَّا بعد:

فاعلم أنَّ اللهَ تعالى أَبْطَلَ أعيادَ الجاهليَّةِ، وأبدلَ أهلَ الإسلامِ عِيدَيْن يجتمعون فيهما للذِّكْرِ والصَّلاةِ وهما: عيد الفطر وعيد الأضحى، فقد ثبت أنَّ النبيَّ ﷺ لَمَّا قَدِمَ المدينةَ وجد للأنصار يومين يلعبون فيهما، ويعتبرونهما أعيادًا، فقال ﷺ: «**إِنَّ اللهَ قَدْ أَبْدَلَكُمْ بِهِمَا خَيْرًا مِنْهُمَا يَوْمَ الأَضْحَى وَيَوْمَ الفِطْرِ**»[٩]، كما شرع لأهل الإسلام الاجتماع للعبادة وذِكْرِ الله يومَ الجمعة، ويومَ عرفة، وأيَّام التَّشريق، أمَّا ما عدا ذلك فلا يجوز الاحتفال بالأعياد الدِّينيَّة: كعيدِ المسيح عليه السلام ورأسِ السَّنة الميلاديَّة، وعيد الأُمِّ، والكِرِسْمِسْ للنَّصارى، أو عيدِ اليوبيل لليهود، وكذلك أعياد الرَّافضة كعيد الغدير، وعيد المعراج، وعاشوراء، وليلةِ أوَّلِ شعبانَ، وليلةِ نصفِهِ، وليلةِ رجب، وليلةِ نِصْفِهِ، والاحتفال بالمولد النَّبوي عندهم وعند المتصوِّفة، والاحتفال برأس القرن الهجري ونحو ذلك، كما لا يجوز الاحتفال بالأعياد الأخرى: كأعياد الميلاد والعمَّال، والمرأة، وعيد العلم، والطِّفل، والشَّجرة،



وأشباه ذلك من محدثات الأمور الَّتي سلك فيها كثيرٌ من المسلمين طريق أعداء الله من اليهود والنَّصارى وأشباههم، وقلَّدوهم في أعيادهم وأخلاقهم وسيرتهم وسائر أنماط حياتهم، قال ﷺ: «لَتَتْبَعُنَّ سَنَنَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ شِبْرًا شِبْرًا وَذِرَاعًا بِذِرَاعٍ، حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ تَبِعْتُمُوهُمْ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ اليَهُودَ وَالنَّصَارَى؟ قَالَ: فَمَنْ؟»[10].

فالواجب ـ إذن ـ تركُ كلِّ ما لم يشرع الله لنا عيدًا وتركُ توابعِه وملحقاتِه كالاجتماع فيها على الدُّروس أو المحاضرات أو الطَّعام أو إقامة الأفراح؛ لأنَّ «تَوَابِعَ الشَّيْءِ مِنْهُ»، ويُلْحَقُ حكمه به جريًا على قاعدة: «التَّابِعُ تَابِعٌ»، وأسباب المنع والتَّحريم يمكن تلخيصها فيما يلي:

أولًا: إنَّها من محدثات الأمور، وقد ثبت عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ، وَكُلَّ ضَلاَلَةٍ فِي النَّارِ»[11]، وفي قوله ﷺ: «وَشَرَّ الأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلاَلَةٌ»[12]، وبقوله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»[13]، وبقوله ﷺ: «مَنْ عَمِلَ عَمَلاً لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[14].

ثانيًا: ولأنَّ الاحتفالَ بالمواسم والأعياد البدعيَّة تَقَدُّمٌ بين يَدَيِ الله ورسولِه في اعتبار أيَّامٍ مخصوصةٍ لم يعتبرها الشَّرعُ أعيادًا، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۝١﴾ [الحجرات: ١].

ثالثًا: ولأنَّ فيه تشبُّهًا باليهود والنَّصارى ومَن على شاكلتهم في أعيادهم وتقاليدهم وعاداتهم، وهو نوعٌ من الموالاة لهم وقد قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: ٥١]، وقال ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[15].

وعليه، فالمشاركةُ في هذه الأعياد غيرِ المشروعة بالاجتماع على الموائد، والاحتفال على المنصَّات، إقرارٌ بالبدعة، ورضًى بما نهى اللهُ عنه؛ والامتثالُ لأمره والابتعاد عن نهيه هو عنوانُ محبَّةِ الله ورسولِه ﷺ، قال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٣١﴾ [آل عمران: ٣١]، قال ابن كثير رَحِمَهُ اللهُ: «وهذه الآية الكريمة حاكمةٌ على كُلِّ من ادَّعى محبَّةَ الله وليس هو على الطَّريقة المحمَّديَّة، فإنَّه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتَّى يتَّبع الشَّرع المحمَّديَّ، والدِّينَ النَّبويَّ في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في الصَّحيح عن رسول الله ﷺ، أنَّه قال: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»»[16].

قلت: ويندرج ضِمْنَ العمل المردود مشاركةُ الخبَّازين وصُنَّاع الحلويات والطَّبَّاخين وتجَّار اللُّحوم البيضاء والدِّيك الرُّومي وغيرهم، لأجل إحياء هذه المناسبات المُحْدَثَة لما فيها من التَّعاون الآثم وتجاوز حدود الشَّرع، وقد نهى اللهُ عن هذا التَّعاوُنِ بقوله سبحانه: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٢﴾ [المائدة: ٢].

واللهَ أسألُ أن يُصْلِحَ حالَ المسلمين، ويُزَكِّيَ قلوبَهم وأعمالَهم ممَّا يخالف صفاءَ الدِّين، وأن يُوفِّقَهم للتَّمسُّك بكتاب ربِّهم وسُنَّةِ نبيِّهم محمَّدٍ ﷺ، وعلى اتِّباع سبيل المؤمنين، إنَّه وَلِيُّ ذلك والقادر عليه.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٠٣٣)، وأحمد (٥٢٣٢)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وصححه العراقي في «تخريج الإحياء» (١/ ٣٥٩)، وحسنه ابن حجر في «فتح الباري» (١٠/ ٢٨٨)، والألباني في «الإرواء» (١٢٦٩).

(٢) أخرجه البخاري (٦١٦٩)، ومسلم (٦٨٨٨)، من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٣) أخرجه أبو داود (٣٥٩٤)، والحاكم (٢٣٠٩)، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، والتِّرمذي (١٣٥٢)، من حديث عمرو بن عوف رضي الله عنه، والحديث صحَّحه الألباني في «السِّلسلة الصَّحيحة» (٢٩١٥).

(٤) أخرجه أبو داود (٢٧٨٧)، من حديث سمرة ابن جندب رضي الله عنه، وحسَّنه الألباني في «الصَّحيحة» (٢٣٣٠).

(٥) «اقتضاء الصِّراط المستقيم» لابن تيمية (١/ ٢٧٠).

(٦) تقدم تخريجه.

(٧) قال القرطبي في «تفسيره» (٣/ ٧٢): «وأجمعت الأمَّة على أنَّ المشرك لا يَطَأُ المؤمنة بوجهٍ، لما في ذلك من الغضاضة على الإسلام».

(٨) أخرجه البيهقي (١٢٥٥٧)، من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (١٨٧).

(٩) أخرجه أبو داود (١١٣٦)، والنَّسائي (١٥٦٧)، وأحمد (١٢٣٣٢)، والبيهقي (٦٣٤٢)، من حديث أنس رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (٢٠٢١).

(١٠) أخرجه البخاري (٧٣٢٠)، ومسلم (٢٦٦٩)، وأحمد (١٢١٢٠)، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(١١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٩)، وأحمد (١٧٦٠٨)، والدارمي (٩٦)، من حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، وصحَّحه الألباني في «الصَّحيحة» (٢٧٣٥).

(١٢) أخرجه مسلم (٢٠٤٢) من حديث جابر رضي الله عنهما.

(١٣) أخرجه البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (٤٥٨٩) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١٤) أخرجه مسلم (٤٥٩٠) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(١٥) سبق تخريجه.

(١٦) «تفسير القرآن العظيم» لابن كثير (١/ ٣٥٨).



أعلام مَنسيَّة:

القاضي عبد القادر الجزائري

سمير سمراد

من الأعلام الجزائرية السَّلفيَّة، الَّتي لا تزال إلى الآن مجهولة لدينا، الشَّيخ القاضي: عبد القادر الجزائري، وقد وقفت على رسالة خاصَّة، من عالم مصلح كبير إلى أحد تلاميذه، وهو العلَّامة العربي التّبسِّي ـ نائب رئيس جمعية العلماء ـ؛ وجدتُه يذكرُ فيها هذا الرَّجل، ويبعث بسلامه إليه، إذْ كان عرفه وتعرف إليه في أثناء زيارته للحجاز (المدينة النبوية) (حجّ عام ١٩٥٤م).

كانت رسالة الشَّيخ العربي التّبسِّي إلى تلميذه الأستاذ بشير كاشة الفرحي مؤرَّخة في (٢/ ٩/ ١٩٥٤م)؛ بعث بها إليه من دمشق بعد انقضاء موسم الحجِّ لذاك العام، يقول في أوَّلها: «السَّلام عليكم ورحمة الله وعلى جميع المصلحين السَّلفيِّين الصَّالحين، ورحمة الله وعنايته، وبعد...»، ويقول في آخرها: «..أخي! نُب عليَّ في إبلاغ تحيَّاتي إلى كلِّ من عرفته وعرفني أيَّام إقامتي بمدينة الرَّسول ﷺ من رجال العلم والفضل وشرائع المروءات، شيوخ مدرِّسين، وأفاضل جزائريِّين وغيرهم، وعلى الأخصّ أخانا الأستاذ عمَّار ابن عبد الله... وإن شغلتك الشَّواغل عن إبلاغ تحيَّاتي إليه، فلن تشغلك عن إبلاغ أخينا الأستاذ الشَّيخ القاضي عبد القادر الجزائري،...»[1].

وقد كان الشَّيخ القاضي من الشَّخصيَّات البارزة، الَّتي يلتقي بها الحجَّاج من الأعيان ومن غيرهم ويزورونها في موسم الحجِّ، وقد وقفت على تصريح لأحد الحجَّاج الجزائريِّين الَّذين لهم ثروة ووجاهة، وإن كان من أعداء الإصلاح، وهو الحاج محمد العشعاشي التِّلمساني؛ فقد نشرت جريدة

«النَّجاح» في [العدد: (٣٨٦٦)، الأربعاء ٢٤ ربيع الأول ١٣٧٠هـ/ ٣ جانفي ١٩٥١م، ص: ١]، تحت عنوان: «ساعات مع فخر(!) مدينة تلمسان بعد عودته من ديار الشَّرق العربي»، قال عن زيارته للمدينة: «فاجتمعنا بالأفاضل والعلماء الصالحين ونخص بالذِّكر منهم...

والشَّيخ السَّيِّد عبد القادر بن الحاج أحمد الجزائري القاضي بنواحي المدينة المنورة...».

وقد بعثْتُ برسالة إلى الأستاذ بشير كاشة ـ (المولود سنة: ١٩٢٦م)؛ خريج معهد الرِّياض العلمي ـ الَّذي نعته الشَّيخ التّبسِّي في الرِّسالة المذكورة: بـ«المعهد الإسلامي السَّلفي» ـ، بشهادتي: الثَّانوية واللِّيسانس «إتمام الدِّراسة العالية» في الشَّريعة، سنة (١٣٨١هـ)، والَّذي كان عضوًا في المنظَّمة المدنيَّة لجبهة التَّحرير الوطني، وعاملًا في ممثليَّتها بالمملكة العربيَّة السُّعوديَّة منذ إنشائها سنة (١٩٥٥م)، حتى الاستقلال[٢] ـ، أطلب منه المزيد ممَّا يعرفه عن الشَّيخ القاضي عبد القادر، فتلقَّيت منه جوابًا مؤرَّخًا في: (٢٨ جمادى الأولى ١٤٢٨هـ/ ١٤ جوان ٢٠٠٧م)، وفيه بعد السَّلام:

«وبعد: فقد تسلَّمت خطابكم الثَّالث الغني بالمعلومات المفيدة جدًّا عن السِّيرة الذَّاتيَّة لأخينا في الله الأستاذ الشَّيخ عبد القادر الجزائري، القاضي بالعلا ثمَّ بالمدينة المنوَّرة (سابقا) ـ رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جِنَانِه ـ، هذا الرَّجل الفاضل لا أعرف عنه سوى أنَّه جزائريٌّ متحصِّل على الجنسيَّة السُّعودية، تلقَّى علومه الشَّرعيَّة على أفاضل علماء الحرمين الشَّريفين، مكَّة المكرَّمة والمدينة المنوَّرة، ولحسن سيرته، وأخلاقه الفاضلة، وتفوُّقه في علوم الشَّريعة الإسلاميَّة، عيَّنته الحكومة السُّعودية قاضيًا بمحكمة العلا التَّابعة للمحكمة الكبرى بالمدينة المنوَّرة الَّتي يترَأَّسها إمام وخطيب الحرم النَّبوي الشَّريف، وبعد مدَّة نقل بنفس الوظيفة «قاض» إلى محكمة المدينة المنوَّرة وظلَّ يعمل بها إلى أن أحيل على التَّقاعد، فكان ملازما لبيته ومحافظًا على الصَّلوات الخمس وصلاة الجمعة بالحرم النَّبوي الشَّريف، و به نراه صدفة على فترات قد تطول وقد تقصر، وعندما يسمع بمجيء أحد علماء الجزائر إلى المدينة المنوَّرة يتَّصل به ويتبادل معه الأفكار حول ما يجري في الجزائر الَّتي كانت تعيش وقتها تحت الاحتلال الفرنسي».



هذا، وقد عثرت على ترجمةٍ له كتبها أحد أصدقائه ومعارفه من الأدباء، وهو الأستاذ «عبد الحق نقشبندي»، نشرت بمجلة «المنهل» للأستاذ عبد القدُّوس الأنصاري، [السَّنة٤٢، المجلد ٣٨، الجزء١٢، ذو الحجة ١٣٩٦هـ/ ديسمبر ١٩٧٦م]، و إلَيْكَها بنصِّها:

«تراجم الأصدقاء من العلماء والأدباء:
السَّيِّد عبد القادر الجزائري
القاضي بالمدينة المنوَّرة سابقًا..
بقلم الأستاذ عبد الحقّ النقشبندي

ولد السَّيِّد عبد القادر بالمدينة المنوَّرة، عام ١٣١٠، ووالده السَّيِّد أحمد الجزائري الإمام المالكي بالمسجد النَّبويِّ الشَّريف، تلقَّى تعليمه الأوَّل في كتاتيب المدينة المنوَّرة وبعد حفظه للقرآن درس على والده وعلى العلماء المدرِّسين بالحرم النَّبوي، ولما تَولَّى الشَّريف حسين ملك الحجاز بعد خروج الحكومة العثمانية منه، تولَّى ابنه الأمير علي ابن الحسين إمارة المدينة فبعث المترجم له كاتبًا لمحكمة العلا فسافر إليها مع أهله ومكث في تلك الوظيفة سنين عديدة، وبعد تولِّي الملك عبد العزيز على الحجاز ولَّى عبد القادر الجزائري قضاء العلا، وظلَّ قاضيًا فيها حتَّى شغرت وظيفة قاض بمحكمة المدينة فجيء به إليها، وظلَّ في القضاء أكثر من عشر سنوات، ثمَّ أحيل للتَّقاعد لبلوغه السَّبعين من العمر.

وبحكم وظيفتي، كمحامي وزارة المالية والاقتصاد الوطني بالمدينة، كنت أزوره في مكان قضائه، وكانت جلّ أحكامه ترجع مصدقة من هيئة التَّمييز، وكان إذا وقف على الأماكن التي تحتاج إلى وقوفه عليها يضيف أعضاء الكشف في داره على سماطه، ولم يحصل فضيلته إلَّا على الرَّاتب المقرَّر بعد الإقالة، وبعد إقالته زيدت رواتب القضاة أضعافًا، وبعد الإقالة اعتكف فضيلته بداره ويزوره الكثير من أرباب القضايا، وأزوره بدوري في كثير من الأحيان.

ولفضيلته ولدٌ واحد اسمه أحمد على اسم أبيه و هو متزوِّج ويقيم مع والده ليقوم بشؤونه.

هذا وقد خرج السَّيِّد عبد القادر الجزائري من المحكمة نظيف اليد ومثالًا للأخلاق الفاضلة أحياه الله الحياة الطيِّبة، آمين.

عبد الحقّ نقشبندي ـ القاهرة: ١٠/ ٧/ ١٣٩٦هـ»

ومن أصدقاء الشَّيخ عبد القادر: العلَّامة

المحدِّث حمَّاد الأنصاري (١٣٤٤هـ ـ ١٤١٨هـ)؛ وقد قال: «إنَّ عبد القادر الجزائري القاضي في المستعجلة **صديقي** من سنة ١٣٦٧هـ، وكنت أزوره في بيته»[٣].

لم أقف على سنة وفاة الشَّيخ عبد القادر ـ رحمه الله تعالى ـ، إلَّا أنَّه كان إلى غاية سنة (١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م) حيًّا.



جاء في مقدِّمة الدُّكتور عبد الرَّحمن المزيني ـ المدير العام لمكتبة الملك عبد العزيز ـ لـ «فهرس مخطوطات الحديث الشَّريف وعلومه في مكتبة الملك عبد العزيز بالمدينة المنوَّرة»، إعداد: عمَّار ابن سعيد تمالت، (ص٧)، وهو يتحدَّث عن أهميَّة هذه المكتبة: «...جمعت فيها مكتبات عدَّة، مثل... مكتبات لبعض الشَّخصيات، أمثال: ...**الشَّيخ عبد القادر الجزائري**، والشَّيخ عمَّار بن أحمد الأزعر الهلالي...».

---

(١) «إمام المجاهدين... الشيخ العربي التبسي...»،تأليف بشير كاشة، (ص٨١).

(٢) انظر سيرته الذَّاتية في مقدِّمة كتابه عن الشَّيخ التبسي، (ص٥ ـ ٨).

(٣) «المجموع من أقوال حمَّاد الأنصاري» (٢/ ٦٠١).



توصيف مخطوطة كتاب «حسن التَّنبُّه لما ورد في التَّشبُّه» لنجم الدِّين الغَزِّي (ت١٠٦١هـ)

د/ كمال قالمي

الحمد لله الَّذي هدانا إلى الصِّراط المستقيم، ونهانا عن التَّشبُّه بأصحاب الجحيم، وأشهد أن لا إله إلَّا الله وحده لا شريك له، شهادة أرجو بها النَّجاةَ من العذاب الأليم والفوز بالنَّعيم المقيم، وأشهد أنَّ محمَّدًا عبده ورسوله الدَّاعي إلى الدِّين القويم، صلَّى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى ذلك اليوم العظيم، وسلَّم تسليمًا كثيرًا.

أمَّا بعد؛ فقد اعتنى علماءُ الإسلام بالعقيدة عنايةً فائقة، وصنَّفوا فيها مصنَّفات رائقة، وخصُّوا مسألة الولاء والبراء، بمزيد اهتمام واعتناء، وأفردوا منها مسألة التَّشبُّه بالأعداء، لمخالفتها صراط الأنبياء والأتقياء.

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

قال الحافظ الذَّهبي: «قال العلماء: ومن موالاتهم التَّشبُّه بهم وإظهار أعيادهم، وهم مأمورون بإخفائها في بلاد المسلمين، فإذا فعلها المسلم معهم فقد أعانهم على إظهارها، وهذا منكر وبدعة في دين الإسلام، ولا يفعلُ ذلك إلَّا كلُّ قليلِ الدِّين والإيمان، ويدخل في قول النَّبيِّ ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»»[1].

ومعناه عند أهل العلم: التَّشبُّه بهم فيما هو من خصائصهم وشعائرهم وهديهم الظَّاهر، ويشمل ذلك كلّ شبه يكون في الأعياد والأخلاق والآداب واللِّباس والهيئات ونحو ذلك.

وإنَّ من أعظم الشَّعائر الظَّاهرة الَّتي تعدُّ من خصائص الأمم ومقوِّماتها الحضاريَّة لغتها ولسانُها؛

ولذلك كان من أهداف الاستعمار «الاستدمار» ومخطَّطاته الأولويَّة محو لغة القرآن من بلادنا؛ فبذلوا في سبيل ذلك كلَّ الوسائل، ولولا أنَّ الله تعالى قيَّض رجال «جمعية العلماء» ـ رحمهم الله تعالى ـ لكادتْ أن تكون اللُّغة العربيَّة في ديارنا نسيًا منسيًّا.

ولكن للأسف نسمع اليوم ونرى كثيرًا من الفتيان والفتيات مَنْ يلوك لسانه بالرّطانة الأعجميَّة ـ من غير حاجة ـ محاكاةً لمن لا خَلاقَ لهم واستجابةً منهم لدعاة التَّغريب.

ولقد قام علماء الجمعية ـ قديمًا ـ بما أوجب الله عليهم خيرَ قيام في التَّصدِّي لأهل الصليب دعاة التَّغريب، وأمَّا اليوم فالأمل معقود على دعاة الإصلاح والتَّعريب، فاللهَ تعالى أسأل أن يصلح أحوالنا وأحوال أمَّتنا إنَّه سميع مجيب قريبٌ.

وعودًا على بدْء في ذكر ما تيسَّر من الكتب المؤلَّفة في التَّشبُّه:

١ ـ «اقتضاء الصِّراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم» لشيخ الإسلام تقيِّ الدِّين أبي العبَّاس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السَّلام ابن تيمية الحرَّاني (ت ٧٢٨هـ) رحمه الله تعالى.

وهو أعظم ما أُلِّف في هذا الباب، ويكفي أنَّه من وضع شيخ الإسلام.

٢ ـ «تنبيه الغافلين الحيارى على ما ورد من النَّهي عن التَّشبُّه بالنَّصارى» لأبي العبَّاس أحمد ابن أبي بكر بن أحمد الحمويّ الحنبليّ المتوفَّى في حدود سنة (٨٣٣هـ) أو (٨٤٣هـ) رحمه الله تعالى[٢].

٣ ـ «تشبيه الخسيس بأهل الخميس» للحافظ شمس الدِّين أبي عبد الله محمَّد بن أحمد بن عثمان الذَّهبيّ (ت٧٤٨هـ) رحمه الله تعالى.

وهو مع صِغَرِ حجمه كبيرُ الفائدة، كثيرُ العائدة، يَنْعَى فيه الإمام الذَّهبي على أهل عصره ممَّن شارك النَّصارى في أعيادهم بخطاب وعظيٍّ بليغ، وأسلوب علميٍّ فصيح.

٤ ـ «القول الثَّبْت في الصَّوم يوم السَّبت» للحافظ شهاب الدِّين أبي الفضل أحمد بن علي بن محمَّد ابن حجر العسقلانيّ (ت٨٥٢هـ) رحمه الله تعالى.

قال في «الفتح» (١٠/ ٣٦٢ ـ ٣٦٣): «وقد جمعتُ المسائل الَّتي وردتْ الأحاديث فيها بمخالفة أهل الكتاب فزادتْ على الثَّلاثين حكمًا، وقد أودعتها كتابي الَّذي سميَّته» فذكره.

ومن الكتب المؤلَّفة في هذا الباب المشتمل على العجب العجاب الَّذي لا زال حبيس الرُّفوف ولم يُنفض عنه التُّراب كتاب: «حُسْنُ التَّنبُّه لما وَرَدَ في التَّشبُّه».

وهو كتاب حافل جَمَعَ فيه مؤلِّفه كلَّ ما ورد في



التَّشبُّه المحمود والمذموم، وضمَّنه فوائد جمَّة ونقولات مهمَّة من المنثور والمنظوم في سائر الفنون والعلوم، وبالجملة فلم يترك فيه شاردة ولا واردة إلَّا وذكرها على وجه البسط والتَّفصيل.

وصاحب الكتاب هو محدِّث الشَّام ومسندها الفقيه المفسِّر المؤرِّخ اللُّغوي الأديب نجم الدِّين أبو البركات محمَّد بن بدر الدِّين محمَّد بن رضى الدِّين محمَّد الغزِّيّ العامريّ الدِّمشقيّ الشَّافعيّ، المولود سنة (٩٧٧هـ)، والمتوفَّى سنة (١٠٦١هـ) عن ثلاث وثمانين سنة[٣].

له مؤلَّفات كثيرة متنوِّعة في الحديث والتَّراجم والفقه واللُّغة والزُّهد، وجلُّها في حكم المفقود، وجزء منها لا زال في عالم المخطوطات، مثل: كتاب «شرح قطر النَّدى وبل الصَّدى»، وكتاب «زجر الإخوان عن إتيان السُّلطان»، وغيرهما، ومنها ما نُشر ككتاب «الكواكب السَّائرة بمناقب أعيان المائة العاشرة»، وذيله: «لطف السَّمَر وقطف الثَّمَر من تراجم أعيان الطَّبقة الأولى من القرن الحادي عشر»، وكتاب «إتقان ما يَحْسُن من الأخبار الدَّائرة على الألْسُن»[٤].

وأمَّا كتاب «حسن التَّنبُّه» فله أكثر من نسخة خطِّيَّة، منها نسخة بخطِّ مؤلِّفه في خمسة أجزاء؛ لكنَّها مفرَّقة في مكتبات العالم، تحتفظ «مكتبة الأسد» بدمشق الشَّام (دار الكتب الظاهرية سابقًا)[٥] بجزئين: الأوَّل (برقم: ٩٠٣٠)، والثَّاني (برقم: ٨٥٨٦).

والجزء الثَّالث يوجد في «مكتبة تشستر بيتي» بدبلن عاصمة «إيرلندا» تحت رقم (٣٢١٦)[٦].

وأفادني صاحبُنا البحَّاثة الأخ أبو عبد الله عمَّار تمالت بأنَّه اكتشف الجزء الخامس ـ وهو الأخير ـ بعد أن كان مجهول المؤلِّف، فجزى الله خيرًا أخانا عمَّارًا على جهوده الطَّيِّبة ومساعيه المشكورة في عنياته بالتُّراث وتعاونه الجادِّ مع إخوانه الباحثين.

والجزء المذكور محفوظ في «مكتبة المتحف البريطانيّ» (برقم OR ٧٩٠٦)، وله صورة في «مركز الملك فيصل» بالرِّياض.

وبقي من نسخة المؤلِّف الجزء الرَّابع يسَّر الله العثور عليه.

ويوجد في «الظَّاهريَّة» أيضًا نسخة أخرى كاملة في سبعة أجزاء بخطِّ الكاتب عبد الرَّحمن ابن محمَّد بن عماد الدِّين الغزولي انتسخها من نسخة المؤلِّف وقابلها عليها، وفرغ من نسخها سنة (١٠٤٢هـ)، وقد كتب المؤلِّفُ نجمُ الدِّين عناوينها على كلِّ جزء، لها مصوَّرات بمكتبة الجامعة الإسلاميَّة بالمدينة النَّبويَّة سوى الجزء الثَّاني.

وعلى هذه النُّسخة وعلى الجزء الثَّاني من

نسخة المؤلِّف جرى هذا الوصف الموجز للكتاب.

كما يوجد نسخة كاملة في «المكتبة السّليمانيّة» بتركيا، وتقع في مجلّد واحد بخطٍّ دقيق جدًّا لا يكاد يقرأ إلَّا بالعدسة المكبِّرة، ومسطرتها (٤١ سطرًا)، وتوجد منه صورة بمكتبة الجامعة الإسلاميَّة.

وللكتاب نُسَخٌ أخرى ناقصة مفرَّقة في مكتبات العالم.

فأمَّا تاريخ تأليفه وفراغه منه، فقد نصَّ على ذلك مؤلِّفُه في آخر الجزء، فقال: «قد شرعت في تأليفه على رأس الألف، وكَمُلَ تبييضُه قبل العشر إلَّا أنِّي زدتُ فيه بعد ذلك أشياء مهمَّة، وجرَّدت لتحريره مطيَّة العزم والهمَّة، فتمَّ في هذه النُّسخة المباركة في سحر اللَّيلة الَّتي يسفر صاحبها عن يوم الأربعاء سادس وعشرين جمادى الآخرة سنة ثمان وثلاثين وألف...».

وهذا يدلُّك ـ أخي القارئ ـ على نبوغ المؤلِّف وظهور مواهبه الكامنة في وقت مُبكِّر، حيث شرع في تأليفه وهو ابن ثلاث وعشرين سنة، ولا غرابة في ذلك فقد باشر الإمامة والتَّدريس والخطابة وهو لا يزال في الخامسة عشرة من عمره(٧).

وأفادنا النَّصُّ أيضًا أنَّه مكث في تأليفه (٣٨ سنة) محرِّرًا ومراجعًا ومنقِّحًا؛ ولذلك كان من مصنَّفاته المرضيَّة عنده، فقال منوِّهًا به: «وهو كتاب لم أسبق فيها أعلم إلى جمعه وترتيبه، ولم أزاحم على اختراعه وتهذيبه، ولا وجدت من جاء في بابه بمثله ولا على أسلوبه». [١/ ٢/ ب]

وأمَّا اسمه وموضوعه ومنهجه، فقد أفصح عن ذلك كلِّه في دِيبَاجَةِ الكتاب، فقال: «هذا ولقد سمَّيت كتابي هذا «حسن التَّنبُّه لما ورد في التَّشبُّه»(٨)، وقسمته بين فاتحته وخاتمته، وفي كنف مقدّمته ولاحقته إلى قسمين وجعلته على ضَرْبَيْن.

القسم الأوَّل: فيمن ورد الأمر بالتَّشبُّه بهم والاقتداء بهداهم وهديهم.

والقسم الثَّاني: فيمن ورد النَّهي عن التَّشبُّه بهم واتِّباع طرقهم». [١/ ٤/ ب]

وقال قبل ذلك: «ذكرتُ فيه ما ورد في ذلك بحسب الاطلاع على سبيل السَّبر والاستقراء، ولاحظتُ فيه مع مراعاة الإيجاز والتَّقريب طريق الاستيفاء، ولم آل جهدًا في تحرير معانيه وإن رقَّت، ولا في تنوير مبانيه وإن انقادت إليَّ في الزَّمن اليسير وحقَّت». [١/ ٢/ ب]

وأمَّا المقدّمة فأفاض فيها جدًّا حتَّى إنَّها اشتملت على أبواب وفصول، وذكر فيها مبحثًا لغويًّا نفيسًا في تعريف «التَّشبُّه» يحسن إيراده برمَّته لأهمِّيته، فقال: «فأمَّا مقدّمة هذا الكتاب وسابقته، وغُرّة هذا المؤلَّف



وفاتحه، فاعلم ـ وفَّقني الله تعالى وإيَّاك إلى المحاب وهدانا إلى الصَّواب ـ أنَّ التَّشبُّه عبارة عن محاولة الإنسان أن يكون شبه المتشبَّه به، وعلى هيئته وحِليته ونَعْتِه وصفته، أو عبارة عن تكلُّف ذلك وتقصُّده وتعلُّمه[٩]، والشِّبْه ـ بالكسر والسُّكون، وبفتحتين ـ: المثل كالشَّبيه، يقال: أشبهه وتشبَّه به ماثله، ويقال: اشتبها وتشابها أشبه كلٌّ منهما الآخر، ومنه قول القائل:

رقَّ الزُّجاج ورقَّت الـخمر
وتشابـها فتشـاكـل الأمـر
فكـأنَّمـا خـمـر ولا قـدح
وكـأنَّمـا قدح ولا خـمـر

وقد يعبَّر عن التَّشبُّه بالتَّشكُّل، والتَّمثُّل، والتَّزيِّ، والتَّحلِّي، والتَّخلُّق، أو يختصُّ هذا الأخير بتكلُّف الأخلاق الباطنة والطَّبائع والصِّفات اللَّازمة، ومثله التَّطبُّع والتَّسلُّق بمعنى تكلُّف مشاكلة الطَّبيعة والسَّليقة، قال الشَّاعر:

إنَّ التّخلُّق يأتي دونَهُ الخُلُق

ويختصُّ التَّشكُّل والتَّزيِّ والتَّحلِّي بتكلُّف الهيئة الظَّاهرة، والحلية البارزة، فيقال في التَّشبُّه بالحلم والكرم مثلًا: تخلَّق، وفي اللِّباس والزِّينة: تشكَّل وتزيًّا وتحلَّى، ومنه الحديث: «لَيْسَ الإِيمَانُ بِالتَّحَلِّي»[١٠].

وقد يكون التَّمثُّل بمعنى الدُّخول في الصُّورة، ومنه قوله تعالى: ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: ١٧] أي تصوَّر.

وقد يكون التَّشكُّل بهذا المعنى، ومنه قول العلماء: «للملائكة قوَّة التَّشكُّل أي الظُّهور بأيِّ صورة أرادوها»، وفي «القاموس»: «الحلية بالكسر: الخِلقة والصُّورة والصِّفة».

فعليه يجوز أن يكون التَّحلِّي بمعنى الدُّخول في الصُّورة أيضًا». [١/ ٥/ أ ـ ب]

ومن الفصول القيِّمة الَّتي تضمَّنتها هذه المقدّمة: مسألة الإقامة في بلاد الكفر، حيث قال: «فصل: ولَمَّا كان الطَّبعُ يسرق من الطَّبع ويسري إليه خصوصًا مع طول الصُّحبة والمعاشرة حتَّى يدعو ذلك الشَّخص إلى تخلُّقه بخُلق مجاوره ومعاشره، كما ترى ذلك كثيرًا في كثير من الحيوانات المتوحِّشة إذا كثر مقامها بين النَّاس أَلِفتهم وفهمتْ إشاراتِهم، ومنها ما يقبل التَّعليم كالببغاء والقُمري من الطَّير والفهد والقرد من السِّباع والبهائم، بل تبلغ من تألُّفها بهم أن لو خرجتْ عنهم لاستوحشتْ إلى الأُنس بهم ونفرتْ عن الوحشة منهم؛ ولذلك قيل: «للمجاورة تأثير»، وقيل: «من عاشر قومًا أربعين يومًا صار منهم»، لَمَّا كان ذلك كذلك جاء النَّهي عن الإقامة في بلاد الكفَّار وعن مساكنتهم ومجاورتهم والأمر بالهجرة عنهم...». [١/ ١٦/ ب]

ثمَّ ذكر الأدلَّة على ذلك وبسط الكلام في الهجرة وموالاة أهل الكفر، ثمَّ فرَّع عنها مسألة هجر المبتدع، فممَّا قاله: «واعلم أنَّ الَّذي يبغض في الله تعالى هو المخالف لأمره، فإن كان كافرًا محاربًا قوتل حتَّى يُسلِم أو يُقتَلَ أو يُستَرَقَّ، وهذا غاية النَّكال والإهانة والإذلال، أو ذمِّيًّا فيستحقُّ الإعراض عنه وترك المفاتحة بالسَّلام والمصافحة ثمَّ لا يؤذى، ولكن الأولى الكفّ عن مخالطته ومعاملته ومواكلته، وأمَّا الانبساط معه والاسترسال إليه فشديد الكراهية، وقد ينتهي إلى التَّحريم، ومودّته حرام، وإن كان عاصيًا فإن كان مبتدعًا يكفَّر ببدعته فأمره أشدُّ من الذِّمِّي، **فإن لم يكفر بها تعيَّن هجره ووجب بغضه والتَّحذُّر منه والإنكار عليه أشدّ من الكافر؛ لأنَّ الكافر يُحْذر ويُتحامَى عنه فلا يتعدَّى شرُّه بخلاف هذا؛ لأنَّه يدَّعي الإسلام**... إلخ». [١/ ٢٤/ ب]

فتأمَّل كلامه في وجوب الإنكار على أهل البدع أشدّ من الكافر لأجل العلَّة الَّتي ذكرها، وفي هذا أبلغ الرَّدِّ على من يشنِّع ويشغِّب على أهل العلم المشهود لهم بالاتباع ولزوم السُّنة بأن ديدنهم الاشتغال بالرُّدود والتَّحذير من الدُّعاة (!!)، وتركهم اليهود والنَّصارى والعلمانيِّين.

ونظير ما ذكره المؤلِّف قول شيخ الإسلام ابن تيميَّة رَحِمَهُ اللهُ في الخوارج وبدعتهم:

«لم يكن أحدٌ شرًّا على المسلمين منهم لا اليهود ولا النَّصارى؛ فإنَّهم كانوا مجتهدين في قتل كلِّ مسلم لم يوافقهم مستحلِّين لدماء المسلمين وأموالهم وقتل أولادهم مكفِّرين لهم وكانوا متديِّنين بذلك لعظم جهلهم وبدعتهم المضلَّة.

ومع هذا فالصَّحابة رضي الله عنهم والتَّابعون لهم بإحسان لم يكفِّروهم ولا جعلوهم مرتدِّين ولا اعتدوا عليهم بقول ولا فعل، بل اتَّقوا الله فيهم وساروا فيهم السِّيرة العادلة، وهكذا سائر فرق أهل البدع والأهواء من الشِّيعة والمعتزلة وغيرهم»[١١].

قلت: وخوارج العصر لا يقلُّ خطرُهم وضررُهم على المسلمين، بل ضررهم أشدّ وأنكى، والواقع الإسلاميّ اليوم خير شاهد.

ومع ذلك لم يعتدِ عليهم علماء السُّنَّة بقول ولا فعل، بل اتَّقوا الله فيهم وساروا فيهم السِّيرة العادلة، فبحكمة وحِلْم سكتوا عنهم وكفُّوا، وبعلم وبصيرة حكموا عليهم وصنَّفوا، فما أحسن أثرهم على النَّاس لو علموا وعرفوا!

ثمَّ بعد المقدّمة المسهبة شرع المؤلِّف في القسم الأوَّل: في التَّشبُّه بمن وَرَدَ الأمرُ بالتَّشبُّه بهم والاقتداء بهداهم وهديهم، وأدرج تحته جملةً من الأبواب.

وتعجيلًا للفائدة ارتأيتُ سردَ هذه الأبواب كلِّها مقتصرًا على عناوينها، وأوردت نُتفًا من أقوال المؤلِّف في أوَّلها باقتضاب، وربَّما نقلت عنه طرائفَ ولطائفَ لمناسبةٍ ما من أثناء الباب، فدونكها ـ أخي القارئ ـ على ترتيب الكتاب:

*** باب التَّشبُّه بالملائكة عليهم السَّلام.**

قال: «اعلم أنَّ التَّشبُّه بالملائكة مشروع؛ لأنَّهم من جملة من أُمرنا بطلب الهداية إلى صراطهم في قراءة الفاتحة في قوله تعالى معلِّمًا لنا: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ غَيۡرِ ٱلۡمَغۡضُوبِ عَلَيۡهِمۡ وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾. [١/ ٦٤/ أ]...»، وذكر جملةً صالحةً من أخلاقهم وأعمالهم وخصالهم.

*** باب التَّشبُّه بالأخيار من بني آدم.**

قال: «اعلم ـ وفَّقني الله ـ وإيَّاك أنَّنا قدَّمنا أنَّ الَّذين يحسن التَّشبُّه بهم من بني آدم هم الأخيار من الطَّوائف الأربعة المذكورين في قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩]...». [١/ ١٩٩/ أ]

*** باب التَّشبُّه بالصَّالحين رضي الله عنهم أجمعين.**

ومن دُرر كلامه رَحِمَهُ اللهُ في هذا الباب قوله: «روى ابن أبي الدُّنيا في «الإخلاص» عن سفيان قال: قال ابن عجلان ـ رحمه الله تعالى ـ: «لا يصلح العمل إلَّا بثلاث: التَّقوى به، والنِّيَّة الحسنة، والإصابة»، قلت: ومعنى الإصابة: أن يصيب بعمله عملًا مأخوذًا به في الشَّرع موافقًا للعلم على سَنَنِ السُّنَّة؛ فلا بدَّ في الصَّالح أن يكون متَّبعًا للسُّنة متجنِّبًا عن البدعة ومحدثات الأمور وذلك من لازم التَّقوى أيضًا؛ فإنَّ المبتدع لو جاء بطاعة نوح، وكرم إبراهيم، وفتوَّة يوسف، وتواضع موسى، وزهد عيسى، وحزن يعقوب، وصبر أيُّوب، وشكر سليمان، وتلاوة داود، وحكمة لقمان لا يكون تقيًّا ولا صالحًا مرضيًّا، وقد روى اللَّالكائي في «السُّنَّة»[١٢] عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «الاقتصاد في السُّنَّة خيرٌ من الاجتهاد في البدعة»...». [١/ ٢١٥/ ب ـ ٢١٦/ أ]

*** باب التَّشبُّه بالشُّهداء.**

قال: «اعلم أنَّ الشُّهداء إمَّا أن نفسِّرهم بالَّذين أَرْدَوْا بنفوسهم حتَّى قُتلوا في سبيل الله تعالى، وإمَّا نفسِّرهم بالعلماء الرَّاسخين في العلم؛ لأنَّهم شهداء الله في الأرض، وهم الواقفون في مقام الاستدلال من أهل العلم، فإنْ أخذنا بالتَّفسير الأوَّل وهو المتبادر، فبهذه الشَّهادة يستكمل العبد مقامات الصَّلاح؛ لأنَّ حقيقة الصَّلاح شغل النَّفس بالطَّاعة

مادامت باقية، فإذا انتهت الطَّاعة أي الجود بذاتها فقد بلغت الغاية...». [٢/ ٢٨/ أ]

وقال: «فصل: وإن أخذنا الشَّهداء بالتَّفسير الثَّاني؛ بأن نقول هم العلماء الرَّاسخون في العلم من حيث إنَّهم شهداء الله في أرضه لقوله تعالى: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ ﴾ [آل عمران: ١٨] فالتَّشبُّه بهم على قسمين: تشبُّه بهم في البدايات، وتشبُّه بهم في النِّهايات...» [٢/ ٣٧/ ب]، ثمَّ أخذ في ذكر الأدلَّة على فضل طلب العلم ومكانة العلماء.

* باب التَّشبُّه بالصِّدِّيقين رضي الله تعالى عنهم[١٣].

قال: «قال الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ [التوبة: ١١٩]، قال نافع ـ رحمه الله تعالى ـ: «مع محمَّد ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم» رواه ابن جرير، ورواه ابن أبي حاتم عنه، وعن ابن عمر رضي الله عنهما ...».

* باب التَّشبُّه بالنَّبيِّين صلوات الله وسلامه عليهم.

قال: «اعلم أنَّ الله تعالى ذكر في سورة الأنعام ثمانية عشر نبيًّا، ثمَّ قال: ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾ [الأنعام: ٩٠]...». [٢/ ١٢٤/ أ]

* باب ذكر أخلاق رسول الله ﷺ.

قال: «قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ ﴾ [الأحزاب: ٢١]...».

* باب التَّشبُّه بالصَّحابة رضي الله عنهم.

قال: «اعلم أنَّ هذا الباب مندرج في الأبواب قبل؛ لأنَّ الصَّحابة رضي الله عنهم إنَّما أخذوا دينهم وهديهم عن النَّبيِّ ﷺ وهم خيار الصَّالحين وهم الصِّدِّيقون... ثم ليس بعد الأنبياء طائفة خيرٌ من الصَّحابة رضي الله عنهم، وقد جاء الكتاب والسُّنَّة بالإرشاد إلى الاقتداء بهم والتَّشبُّه بهم؛ فعقدتُ هذا الباب لبيان مجمل أخلاقهم دون تفاصيل خُلق كلِّ واحد منهم؛ لأنَّ ذلك منثور في كتب الأحاديث والآثار والتَّاريخ والأخبار ولم يخرجْ عن كتابنا هذا من محاسن أخلاقهم وأخلاق مَنْ سواهم إلَّا ما شذَّ...». [٢/ ٢١٧/ أ ـ ب]

* باب التَّخلُّق بأخلاق الله عزَّ وجلَّ.

قال: «ينبغي أن يتحاشى في هذا الباب عن استعمال لفظ التَّشبُّه تحاشيًا كلِّيًّا؛ لأنَّ الله تعالى ليس كمثله شيء وهو السَّميع البصير، وإنَّما أطلقتُ لفظ التَّخلُّق لوروده في السُّنَّة[١٤] كما ستعلم، ومعنى التَّخلُّق بأخلاق الله تعالى الاتِّصاف بأخلاق موافقة لأخلاقه سبحانه وتعالى، لا أنَّها هي بعينها أو مثلها من سائر الأطراف وفي جميع الأوصاف، لما يلزم على ذلك من الاتِّحاد وانقلاب الحادث قديمًا وكلاهما محال...». [٢/ ٢٣١/ أ]



ثمَّ عقد فصلًا في بيان أقسام هذه الأخلاق، قال:

«فالقسم الأوَّل: وهو الأخلاق الَّتي لا تليق إلَّا بالله تعالى، فهي كلُّ خُلُقٍ مختصٌّ بالرُّبوبيَّة كالكبرياء والعظمة...

القسم الثَّاني: وهو الأخلاق الَّتي نزَّه الله نفسه عنها، ونهى العبد عن الاتِّصاف بها، كالظُّلم والبخل والحسد...

والقسم الثَّالث: وهو الأخلاق الَّتي لا تليق إلَّا بالعبد ولا يجوز لأحد أن يصف اللهَ بها؛ فهو كلُّ خُلق يستلزم حدث المتخلّق به كالنِّكاح وتناول الطَّعام والشَّراب، أو تستلزمه العبوديَّة كالصَّلاة بجميع أعمالها...

القسم الرَّابع: وهو الأخلاق الَّتي اتَّصف الله تعالى بها وأرشد عباده إلى التَّخلُّق بها؛ فهو كلُّ خُلُقٍ ثبت بالنَّصِّ اتِّصاف الله تعالى به، وورد الإرشاد إليه، كالعلم والحلم والرَّحمة واللُّطف وغير ذلك...». [٢/ ٢٣٢/ ب ـ ٢٣٤/ ب]

وعقد فصولًا أخرى في الكلام على أسماء الله الحسنى وشرحها، وبذلك ينتهي الجزء الثَّاني.

قلت: وليت المؤلِّف رَحِمَهُ الله تحاشى ذكر هذا الباب، وإن كان بيَّن مقصوده على وجه الصَّواب؛ لأنَّ وصف الله عزَّ وجلَّ بالتَّخلُّق لم يرد في القرآن ولا في السُّنَّة الصَّحيحة، فهو من الألفاظ المجملة الَّتي يستفصل عن معناها؛ فإن كان صحيحًا موافقًا للكتاب والسُّنَّة قُبل المعنى وتُوقِّف في اللَّفظ ولا يعبَّر به، وإن كان المعنى باطلًا رُدَّ اللَّفظ والمعنى، والواجب التَّقيُّد بالألفاظ الشَّرعيَّة، والابتعاد عن الألفاظ المجملة والموهمة لمعان باطلة، كما قرَّره علماء السَّلف رحمهم الله.

وقد سُئل سماحة الشَّيخ العلَّامة عبد العزيز ابن باز رَحِمَهُ الله عن خطيب يحثُّ النَّاس على الاتِّصاف بصفات الله والتَّخلُّق بأخلاقه؟ فأجاب بقوله: «هذا التَّعبير غير لائق، ولكن له محمل صحيح، وهو الحثُّ على التَّخلُّق بمقتضى صفات الله وأسمائه وموجبها...»[١٥] إلى آخر جوابه، الَّذي هو بمعنى التَّقسيم الَّذي ذكره المؤلِّف، وأفاد ابن باز رَحِمَهُ الله بأنَّ لابن القيِّم رَحِمَهُ الله كلامًا على هذا المعنى في «عدة الصَّابرين» (ص٣١)، و«الوابل الصَّيِّب» (ص٥٤٣).

ثمَّ لما فرغ المصنِّف رَحِمَهُ الله من هذا الباب ابتدأ الكلام في القسم الثَّاني من الكتاب فيمن ورد النَّهي عن التَّشبُّه بهم واتِّباع طرقهم.

قال: «قال الله تعالى: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٤﴾ وَأَنْ أَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا وَلَا تَكُونَنَّ

﴿مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [يونس: ١٠٤ ـ ١٠٥]، هذه الآية أصلٌ عظيم في الأمر بالتَّشبُّه بالمؤمنين والنَّهي عن التَّشبُّه بالمشركين، والشِّرك المتَّصفون به شامل للشِّرك الأكبر والشِّرك الأصغر الشَّامل لسائر المعاصي فهي دليلٌ لقسْمَي الكتاب.

واعلم أنَّا نذكر في هذا القسم قبائح الأخلاق وسفاسف الأمور وسيِّئات الأعمال لِتُحْذَر وتُجتنب، فقد قال حذيفة بن اليمان ـ رضي الله تعالى عنه ـ: «كان النَّاسُ يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكنتُ أسأله عن الشَّرِّ مخافة أن أقع فيه، وعلمتُ أنَّ الخير لا يسبقني»، وفي رواية عنه: «فعرفت أنَّ من لا يعرف الشَّرَّ لا يعرفُ الخير»، وقال بعضهم في معناه:

عرفنا الشَّر لا للشَّر لكن لتوقِّيه

ومن لا يعرف الشّر من النّاس يقع فيه...».

[٤/ ٢/ أ]

وقد جعل هذا القسم في ثلاثة أنواع:

النَّوع الأوَّل: في النَّهي عن التَّشبُّه بالشَّيطان.

النَّوع الثَّاني: في النَّهي عن التَّشبُّه بالكفَّار.

النَّوع الثَّالث: في النَّهي عن التَّشبُّه بالفسَّاق.

النَّوع الأوَّل من القسم الثَّاني في النَّهي عن التَّشبُّه بالشَّيطان.

قال: «قال الله تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]، ومتَّبع غير سبيل المؤمنين متَّبعٌ لسبيل الكافرين، وإبليس أشدُّهم كفرًا، فالآية دليل لهذا النَّوع والَّذي بعده...».

ثمَّ أفاض في ذكر أعمال الشَّيطان وأخلاقه، ثمَّ عقد فصلًا في بيان أنَّ الشَّيطان لا سبيل له على الإنسان إلَّا من قِبل نفسه وهواه، ثمَّ استطرد في حقيقة الهوى، والكلام على الشَّهوات، ومداخل الشَّيطان إلى غير ذلك.

وهذا الباب وحده جاء في أكثر من مائة وثمانين ورقة فلو طُبع لجاء في مجلَّد كبيرٍ.

ومن جملة اللَّطائف الَّتي ذكرها في هذا الباب ما يتعلَّق بالتَّوكُّل والاعتماد على الله وحده في قضاء الحاجات وكشف الكربات دون الالتفات إلى مَنْ سواه من المخلوقات حيث نقل عن الفخر الرَّازيّ أنَّه قال: «والَّذي جرَّبته من طُول عمري أنَّ الإنسان كلَّما عوَّل في أمر من الأمور على غير الله تعالى صار ذلك سببًا للبلاء والمحنة والشِّدَّة والرَّزيَّة، وإذا عوَّل على الله ولم يرجع إلى أحد من



الخلق حصَّل ذلك المطلوب على أحسن الوجوه، قال: فهذه التَّجرِبَة قد استمرَّت بي من أوَّل عُمْري إلى هذا الوقت الَّذي بلغتُ فيه إلى السَّابع والخمسين! فعند هذا استقرَّ قلبي على أنَّه لا مصلحة للإنسان في التَّعويل على شيء سوى فضل الله تعالى وإحسانه...»، قلتُ: وهذا أمرٌ جرَّبتُه في أوَّل العُمْر قبل أن أقف على كلام الإمام برهة من الزَّمان ثمَّ استقرَّ قلبي عليه من ثَمَّ إلى الآن، وأنا في الحادية والثَّلاثين من عمري، ولقد قضيت العجب من الإمام كيف لم يستقرَّ قلبُه على ذلك حتَّى مرَّ به هذه المدَّة الطَّويلة؟!...». [٤/ ٦٠/ أ]

النَّوع الثَّاني من القسم الثَّاني من الكتاب في النَّهي عن التَّشبُّه بالكفَّار:

وأدرج تحته عدَّة أبواب:

ـ باب النَّهي عن التَّشبُّه بقابيل القاتل لأخيه هابيل. [٤/ ١٨٤/ أ]

ـ باب النَّهي عن التَّشبُّه بقوم نوح عليه الصَّلاة والسَّلام.

قال: «وهم أوَّل من عبد الأصنام». [٤/ ٢٠١/ أ]

ـ باب النَّهي عن التَّشبُّه بكنعان بن نوح.

قال: «وهو أوَّل من عُرف بالنِّفاق من أولاد آدم...». [٤/ ٢١٥/ أ]

ـ باب النَّهي عن التَّشبُّه بعاد.

قال: «وهو أوَّل من تأنَّق في البنيان، ورفعه وأحكمه أسلافهم...». [٤/ ٢٢١/ أ]

ـ باب النَّهي عن التَّشبُّه بثمود.

قال: «وكانوا أوَّلَ مَنْ هلك بطاعة النِّساء...». [٤/ ٢٤١/ ب]

ـ باب النَّهي عن التَّشبُّه بنُمرود وقومه.

قال: «وهو بضمِّ النُّون ودال مهملة كما في «القاموس»...». [٤/ ٢٦٠/ أ]

ـ باب النَّهي عن التَّشبُّه بقوم لوط عليه السلام.

قال: «وهم أوَّل من أتى في الدُّبر، وهي أبشع فِعْلة فعلوها بعد الكفر بالله تعالى...». [٤/ ٢٧٧/ أ]

ـ باب النَّهي عن التَّشبُّه بالرَّهط التِّسعة من ثمود.

قال: «وهم يشتملون على ما ذكرنا من قبائح ثمود، ويزيدون عليها قبائح أخرى...». [٤/ ٢٨٤/ ب]

ـ باب النَّهي عن التَّشبُّه بقوم شعيب عليه السلام.

قال: «وهم أوَّل المطفِّفين...». [٤/ ٢٩٤/ أ]

ـ باب النَّهي عن التَّشبُّه بفرعون وقومه.

قال: «وهو أوَّل من خضب بالسَّواد، وسخَّر النَّاس في الأعمال الشَّاقَّة، وبُني له بالآجر، وصلب

وقطع الأيدي والأرجل من خلاف ظلمًا...». [٥/ ٢/ أ]

ـ باب النَّهي عن التَّشبُّه بأهل الكتاب وهم اليهود والنَّصارى.

ومن لطائف ما أورده في هذا الباب من أخلاق اليهود والنَّصارى:

إنكار القدر والتَّنازع فيه. [٥/ ٦٤/ ب]

ومنها: الاحتجاج بالمشيئة والقدر في الاعتذار عن البخل، وهو مضادٌّ لقولهم: «لا قدر».

ومنها: «الإرجاء»، وهو اعتقاد أنَّ الإيمان مجرَّد قول «لا إله إلَّا الله» بدون التَّصديق بالقلب وعمل بالجوارح، أو مجرَّد القول والمعرفة، وقد تقدَّم عن ابن عباس ـ رضي الله تعالى عنه ـ: «أنَّه شعبة من النَّصرانيَّة»، وروى اللَّالكائي عن سعيد ابن جبير رضي الله عنه قال: «المرجئة يهود القبلة»...». [٥/ ٦٥/ ب]

ومنها: ترك السُّنَّة شيئًا فشيئًا، والابتداع في الدِّين...

ومنها: الإيغال في البُغض كالخوارج، وفي الحبِّ كالرَّوافض؛ فإنَّ اليهود أفرطوا في حبِّ عُزَيْر عليه السلام حتَّى قالوا فيه ما قالوا، وفي بغض عيسى عليه السلام حتَّى قالوا إنَّه ولد لغير رَشْدَةٍ، وأفرطت النَّصارى في حبِّه حتَّى زعموه إلهًا. [٥/ ٦٦/ ب]

كما تعرَّض أيضًا في هذا الباب إلى تحريم التَّشبُّه بأهل الكتاب في أعيادهم، فممَّا قاله: «ومن أخلاق اليهود والنَّصارى الاحتفال لأعيادهم ولكلِّ أمَّة عيد يحتفلون فيه، فجعل الله تعالى لهذه الأمَّة عيدين في كلِّ عام، وعيدًا في كلِّ أسبوع ليحتفلوا بأعيادهم ولا يحتفلوا بأعياد غيرهم...». [٥/ ٢٤٥/ أ]

وأورد حديث عائشة رضي الله عنها في «الصَّحيحين»: «**يا أبَا بكر! إنَّ لكلِّ قومٍ عيدًا وهذا عيدُنا**» وعلَّق عليه بقوله: «ففي الحديث إشارة إلى أنَّ لكلِّ قوم عيدًا يختصُّ بهم، فأعياد أهل الكتاب خاصَّة بهم، وأعيادنا خاصَّة بنا، وأنَّ عيد أهل الإسلام محصور في جنس ذلك اليوم، وهو ما كان عيدًا شرعيًّا، فليس لأحد أن يتَّخذ عيدًا لم يرد به الشَّرع الشَّريف...». [٥/ ٢٤٥/ أ ـ ب]

كما نقل في هذا الباب عن «اقتضاء الصِّراط المستقيم» لشيخ الإسلام الوجوهَ الثَّمانية في تحريم مشاركة أهل الكتاب في أعيادهم. [٥/ ٢٤٦/ أ]

ـ باب النَّهي عن التَّشبُّه بالأعاجم والمجوس.

قال: «ولفظ الأعاجم والعجم قد يطلق ويراد به فارس خاصَّة ـ كما سيأتي ـ، وتارة يطلق ويراد به



ما عدا العرب من النَّاس، كما تطلق العجمية ويراد بها ما سوى العربيَّة، وعلى هذا فمهما أُطلق مدح العرب في موضع كان مفهومه إطلاق ذمِّ العجميَّة، وبالجملة ففضل العربيَّة والعرب لا يُنكر ويدلُّ عليه العقل والنَّقل...». [٥/ ٢٨٦/ أ] ثم استطرد في سرد الأدلة على ذلك.

ـ باب النَّهي عن التَّشبُّه بأهل الجاهليَّة والمشركين.

قال: «... والجاهلية تارة يكون اسمًا للحال ومعناه قريب من المصدر، وتارة يكون اسمًا لذي الحال يقال: طائفة من الجاهلية...». [٦/ ٤/ أ]

ـ باب النَّهي عن التَّشبُّه بالمنافقين.

قال: «اعلم أنَّ النِّفاق على قسمين: اعتقادي وهو إبطان الكفر وإظهار الإسلام، وهو أشدُّ أنواع الكفر، ولذلك قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ**﴾ [النساء: ١٤٥]، وهذا يخلد صاحبُه في النَّار.

وعملي بأنْ يعتقد اعتقاد المسلمين ويعمل أعمال المنافقين، وهو من أشدِّ المعاصي وأكبر الذُّنوب...». [٦/ ٨٠/ أ]

النَّوع الثَّالث من القسم الثَّاني من الكتاب في النَّهي عن التَّشبُّه بالفسقة.

قال: «الفاسق إمَّا أن يكون فسقه في اعتقاده، ويقال له: مبتدع.

وإمَّا أن يكون في غير اعتقاده، وكيف ما كان لا ينبغي للعدل أن يتشبَّه به، فتعيَّن الكلام في هذا النَّوع في مقامين...».

قال: «المقام الأوَّل: في النَّهي عن التَّشبُّه بالمبتدعة.

قال الله تعالى: ﴿**إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ١٥٩**﴾ [الأنعام: ١٥٩]، قيل: «هم أهل الكتاب»، وقيل: «المشركون بعضهم يعبد الملائكة، وبعضهم يعبد الأصنام»، وقيل: «هم أهل البدع»، وهذا الأقرب؛ لأنَّ براءة النَّبيِّ ﷺ من اليهود والنَّصارى وسائر المشركين كانت معلومة محقَّقة قبل نزول الآية، وإنَّما المراد أنَّ الَّذين فرَّقوا دينهم من أمَّتِك لستَ منهم في شيء، وإن كان يُنسبون إلى اتِّباعك والاقتداء بك...». [٦/ ١٦٠/ أ ـ ب]، وتكلَّم بعد ذلك على أصول الفِرَق الضَّالة وطوائفها.

قلت: وهذه نكتة طريفة ولَفْتَة لطيفة من المؤلف رَحِمَهُ ٱللَّهُ؛ فأهل البدع في كلِّ زمان ومكان هم أهل الفُرقة والتَّحزُّب والاختلاف، ثمَّ يتباكون اليوم على تفرُّق الأمَّة وتشتُّتها وتكالب الأعداء

عليها، ويتنادون إلى وحدة الصَّفِّ وجمع الكلمة والائتلاف! وهم في الوقت نفسه يركضون وراء البيعات السِّرِّيَّة والمظاهرات الغربيَّة والثَّورات البدعيَّة، وغير ذلك ممَّا يزيد الأمَّة وَهْنًا على وَهْنها وتفرُّقًا إلى تفرُّقها، وإلى الله المشتكى.

المقام الثَّاني: في النَّهي عن التَّشبُّه بغير المبتدعة من الفُسَّاق.

وفسَّر الفِسْق في اللُّغة والشَّرع، ثمَّ عقد فصلًا جاء فيه:

«التَّشبُّه بالفسَّاق يحصل بأحد ثلاثة أمور: الأوَّل: ارتكاب كبيرة، الثَّاني: الإصرار على صغيرة أو غلبته الصغائر، الثَّالث: الإخلال بالمروءة إذا اتَّخذه ديدنًا أو عادة، وهو داخل فيما قبله على أحد الأقوال، فتعيَّن أن نشير إلى الكبائر والصَّغائر وما يخلُّ بالمروءة وذلك في ثلاثة فصول...». [٦/ ٢١٥/ أ ـ ب]

ـ باب النَّهي عن تشبُّه العاقل بالمجانين والحمقى. [٦/ ٢٤٤/ أ]

ـ باب النَّهي عن تشبُّه الحرِّ بالرَّقيق وعكسه. [٦/ ٢٥٥/ أ]

ـ باب النَّهي عن تشبُّه الرَّجل بالمرأة وعكسه. [٦/ ٢٨٧/ أ]

ـ باب النَّهي عن تشبُّه الرِّجال بالصِّبيان.

قال: «وهو مذموم وعكسه محمود...». [٦/ ٢٩٨/ أ]

ـ باب تشبُّه الفقير بالغنيِّ وعكسه.

قال: «أمَّا تشبُّه الفقير بالغنيِّ فقد يكون مستحسنًا وقد يكون مذمومًا...». [٦/ ٣٣٣/ أ]

ـ باب تشبُّه أهل الحَضر بأهل البَدْوِ وعكسه.

ـ باب النَّهي عن تشبُّه العالم بالجاهل.

ثمَّ ختم هذا القسم بقوله: «لا يدخل في جميع ما ذكرناه من أوَّل هذا القسم ـ أي من التَّشبُّه المذموم ـ إلى ما هنا شَبَهُ الصَّالح بالطَّالح في خِلْقته أو صورته أو حِلْيته أو في اسمه ونحو ذلك، فلا يضرُّ المؤمنَ إذا كان أعورَ شبهَ الشَّيطان أو الدَّجَّال في كونه أعور العَوَر الصُّوريّ، وإنَّما يضرُّه العَوَرُ القلبيُّ كالعمى القلبي...». [٦/ ٣٧٥/ ب]

ـ باب النَّهيِّ عن التَّشبُّه بالبهائم والسِّباع والطَّيْر والهَوَامِّ.

قال: «اعلم أنَّنا جعلنا هذا الباب في خاتمة هذا القسم الثَّاني من الكتاب؛ لأنَّه بهذا القسم أليق وبهذا النَّوع أحقُّ؛ لأنَّ التَّشبُّه بالبهائم والسِّباع والطَّير والهوامِّ لا يحسن إلَّا على ضرب من التَّأويل كما ستعلم...». [٧/ ٢/ أ]



ـ باب ما يحسن من التَّشبُّه بالبهائم والسِّباع.

قال: «هذا الباب كالتَّكملة للباب قبله، وذلك أنَّه قد وردت آثار في الإرشاد إلى التَّشبُّه ببعض أشراف الحيوانات كالأسد والنَّسر والبازي والنّمر والحمام، وليس ذلك لكمال فيها لما تقرَّر لك أنَّ البهائم لا حظَّ لها في العقل ولا نصيب لها في التَّمييز ولذلك لم تكن مكلَّفة...». [٧/ ٢٠٠/ أ]

وفي الأخير ذكر خاتمة الكتاب الَّتي وعد بها في المقدّمة، وهي في فضل الإنابة والمتاب. [٧/ ٣٣١/ ب]

وبعد هذا العرض لأهمِّ مَضَامِينِ الكتاب ومحتوياته يكون القارئ قد أخذ ـ إن شاء الله ـ فكرةً عامَّة عن الكتاب وقيمته العلميَّة، وهو بحقٍّ فريدٌ في بابه، موسوعةٌ في موضوعه، لم يُسبق إليه ولم يُنسج على مِنْواله، ، فمَنْ أَنِس من نفسه قدرةً على تمييز الغَثِّ من السَّمين[١٦]، وتمكُّنًا من تبيين الصَّحيح من السَّقيم[١٧]، فحريٌّ به أن ينشره ليعمَّ الانتفاع به.

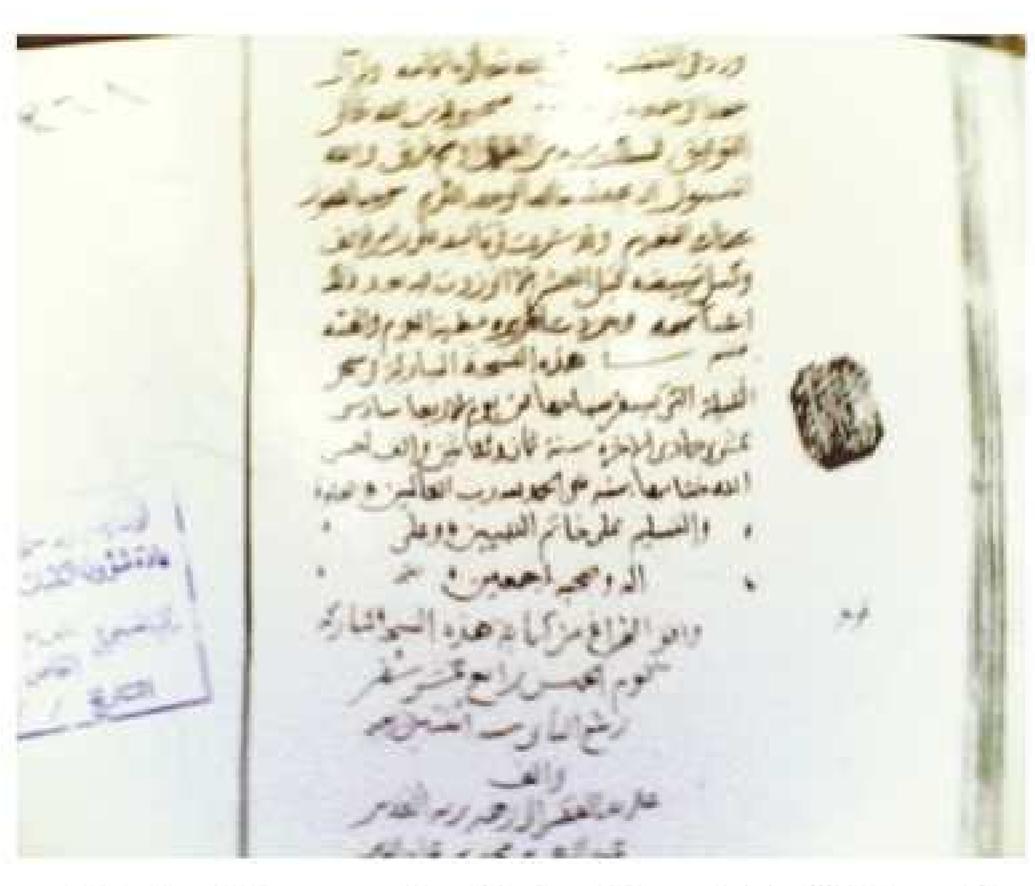
ولو هذَّب واختُصر، ونُقِّح واعتُصر لكان أحسن صنعًا وأكثر نفعًا.

والله تعالى أعلم بالصَّواب، وصلَّى الله وسلَّم على نبيِّنا محمَّد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *



ـ اللوحة الأولى من الجزء الأول ـ



. اللوحة الأخيرة من الجزء السابع وهي آخر الكتاب.

(١) «تشبيه الخسيس» (ص٣٤).

(٢) له ترجمة في «الضَّوء اللَّامع» للسَّخاوي (١/ ٢٤٩ ـ ٢٥٠)، و«هدية العارفين» للبغدادي (١/ ١٢٦)، والكتاب ذكره البغداديّ وحده.

(٣) له ترجمة في: «خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر» للمحبيّ (٤/ ١٨٩ ـ ٢٠٠)، و«هدية العارفين» للبغداديّ (٢/ ٢٨٥)، و«الأعلام» للزركلي (٧/ ٦٣)، و«معجم المؤلِّفين» لكحالة (١١/ ٢٨٨ ـ ٢٨٩)، وغيرها.

(٤) وهو فيما اشتهر على الألسن من الصَّحيح والحسن والضَّعيف والموضوع، وقد انتقى منه حفيدُه أحمد ابن عبد الكريم الغزيّ (١١٤٣هـ) ما لم يرد عن سيِّد البشر لكنَّه ورد في الأثر، وما هو كذب موضوع ومختلق مصنوع وسمَّاه: «الجدّ الحثيث في بيان ما ليس بحديث»، وهو مطبوع أيضًا.

(٥) ولمزيد معلومات وبيانات عن النُّسخ الظَّاهريَّة يراجع: «فهرس مخطوطات دار الكتب الظاهرية» (١/ ٤٤١ ـ ٤٤٧ ـ قسم التَّصوُّف).

(٦) انظر: «فهرس المكتبة المذكورة» (١/ ١٢٤).

(٧) انظر: «لطف السَّمر» (ص٣١٣).

(٨) هكذا قرأته بخطِّ المؤلِّف في عدَّة مواضع على طرَّة النُّسخة الَّتي بخطِّ الغزولي، ووقع في طرَّة الجزء الثَّاني بخطِّ المؤلِّف أيضًا: «فيما ورد» بدل «لما ورد».
بينما سمَّاه المحبّي في «خلاصة الأثر» (٤/ ١٩٥): «التَّنبيه في التَّشبيه» وتابعه عليه صاحب «هديَّة العارفين».

(٩) في نسخة الغزولي: «تعمله»، والتَّصويب من النُّسخة السليمانية.

(١٠) حديث موضوع، وإنَّما ثبت من قول الحسن البصري رَحِمَهُ اللهُ، انظر: «السِّلسلة الضَّعيفة» (١٠٩٨)، و«تبييض الصَّحيفة» (الحديث الثَّالث والثَّلاثون).

(١١) «منهاج السُّنَّة» (٥/ ٢٤٨).

(١٢) «شرح أصول اعتقاد أهل السُّنَّة» (١٤).

(١٣) هذا الباب وما بعده سقط من نسخة المؤلِّف المصوَّرة، واستدركته من النُّسخة السّليمانيّة (ل١١٨/ ب).

(١٤) يُشير إلى حديث: «تخلّقوا بأخلاق الله» وهو لا أصل له، كما قال العلَّامة الألباني رَحِمَهُ اللهُ في «السِّلسلة الضَّعيفة» (٢٨٢٢).

(١٥) «مجموع فتاوى ابن باز» (١/ ٣٢٩ ـ ٣٣١).

(١٦) لأنَّ الكتاب في حاجة إلى التَّعليق على مواطن شطح فيها قلم مصنِّفه لأجل تمشعره وتصوُّفه، أسأل الله تعالى أن يتجاوز عنه بمنِّه وكرمه.

(١٧) وإن كان المؤلِّف حكم على كثير من الأحاديث.



المقامة الجزائرية

محمد بوسلامة

حدَّث محمد بن علي قال : وقفت على أطلال السُّور[1]، وهي تروي قصّة العهد المنصور، وما بلغه أمراء تلك القصور، من شأو حجز دونه القصور، من مراتب عِزِّ الدّنيا والدين، من عهد بابا عرُّوج وخير الدين، إلى أزمنة الدايات الآخِرين، وقد ذكّرتني خرَقٌ على طلول السُّور باليه، برايات الحرير العاليه، التي زاد علوُّها الأعداءَ إذلالا، وزادتها رياح الباب الجديد[2] تِيها ودَلالا، وقد أمالتها نخوة الشَّرف والسَّنَاء، كما يُميل الغُنج والتّدلُّلُ الغادةَ الحسناء، ففاض من ذلك التَّذكار دمعي، ثم ضُرب على بصري وسمعي، فلم أشعر بما حولي، ولم يكن ذلك من قوتي ولا مِن حولي، ثم طغى التذكر فلازمني، وأخرجني الخيال عن زمني، فإذا أنا في مجلس السُّلطان، وقد مثُل[3] بين يديه سفراء الأوطان، وفيهم من الأنكليز والمريكان والفرنسيس، وقد جاءوا بكل غال ونفيس، من أجل تأكيد العهود، والسّلامة في بحر الأسود، فقبِل منهم الدّاي[4] وصرفهم في الحين، وانقلبوا ـ إذ أمّنهم ـ إلى ملوكهم فرحين.

ثمّ خلت السّاحه، وتحوّل السلطان إلى مجلس الأنس والرّاحه، يصحبه الخَزْناجي والخليفه، ومعهم شَوَّاش السَّقِيفه، ثم برزت جارية من الغرف، تجرّ ذيول الترف، عليها حُلّة سُندسيه، في هيئة أندلسيه، قد مُلئت حسنًا كأنَّ البدرَ أعارها طلعتَه، حتى إذا اطمأنَّ المُقام، أخذت في مَطالِع المَقام، على حالة لو رآها طرَفه لأمسك عن قوله :

ندامـاي بيـض كالنجـوم وقينـة
تروح علينـا بيـن بُـرد ومُـجسَـدِ

رحيبٌ قِطاب الجيب منها رقيقة
بجسّ الندامى بضّةُ المتجرّدِ
إذا نحن قلنا أسمعينا انبرت لنا
على رسلها مطروقةً لم تَشدّدِ
إذا رجّعت في صوتها خِلتَ صوتها
تجاوُبَ أَظْآر على رُبَعٍ ردِي

ثم طفقت تغنّي الدّاي، وقد طابت عشيّتُه بنغَم وأتاي:

سَلِّي همُومَكْ في ذَا العَشِيَّه
ما تَدْري بَاشْ يَاتِيكَ الصَّباحْ
قُوم اغتنِم ساعةً هَنِيَّه
والدُّنيا ما هِيْ إلَّا مِزاحْ

ولو درت ما جاء به الصباح[٥]، لانقلب الغناء إلى نحيب وصياح، ولشغلها تعلم الرمايه، عن رمل المايه[٦]، ولو درى ذلك الدّاي لأمرها أن تغيّر النغمة إلى الموّال[٦]، الذي يُذكِّر بمراثي البرامكة عند تغيّر الأحوال، ولأمرها أن تغنِّيَه:

الاَحكامْ مَقضيَّه حُكْم الإلَهْ محتُومْ
صْبَرْ عَمَّا بيَّا والحُزْنُ لَيْسَ يْدُومْ
هذِهِ هِيَ الدَّنْيا تَرْفَع وتُوضَعْ قُوم[٧]

حتى إذا ذهب بيَ التَّذكار كلَّ مذهبٍ أذن مؤذن العصر، فأخرجني من ذلك العصر، فذهب عني ما قد عراني، ثم صليت في المسجد البَرَّاني[٨].

ثمّ تاقت المُهجه، إلى حاضرة البهجه[٩]، فسلكت طريق «العين المُزَوَّقَه»[١٠]، إلى المدينة المرونقه، حيث القصور والدويرات، والعيون الجاريات، فسرّحت الطّرف في جمالها الذي تبَقّى، وما ذهب منها أجمل وأرقى، ولكنَّ الذي حضر، شاهد على ما غبر، فذكّرني جامع «سيدي رمضان»[١١] بالفقيه الخطيب، من فاق نفحُ ذكره نفحَ كل طيب، فارسِ المنابر وسيّدِ القراطيس والمحابر، صاحبِ المواعظ والفتاوي، سيدي أبي يعلى الزّواوي[١٢]، الذي إذا وعظ أبكى، وإذا طعن في نحور الغيّ كان أشدّ وأنكى، فليتَ خطباء هذا الزمن الذاوي، يقتدون بالفتى الزّواوي، إلا أنّني قد دريت، أنّه لا ينفع شيئا ليت، ثمّ نظرت من أعلى المدينة إلى سفحها، فقلت رحم الله من قال في مدحها:

بلدٌ أعارته الحمامَةُ طَوقَها
وكساهُ حلّةَ ريشِه الطَّاووسُ

ثم أنشدت قولي فيها[١٣]:

إن الجزائر والتاريخُ ينبئكُم
كانت بكلِّ حُليّ العزّ تزدانُ



كانت مُكرمة في الخير ناعمةً
يسعى إلى خيرها رَجْلٌ وركبانُ
فاسأل رُباها وسل إن شئت ساحلَها
واسأل قصورا بها قد عَزّ سلطانُ
قد زادها ربُّها حسنا فكان لها
في كل ناحية روضٌ وبستانُ
إذا ترنّم مَقْنِينٌ[١٤] بأيْكَتِه
تمايلت طربًا بالثّمر أفنانُ
تخالُ مِن تحتُ أنَّ الشمس قد وجبت
وأنّ قطرَ النّدى إذ سالَ شُهبانُ
قد أسدَلت رَفْرَفًا في ظلّه نَهَرٌ
يجري فراتٌ وحول النّهر رَيحانُ

ثمّ نزّهت الطرف في مناظر بديعه، من شاطئ باب الوادي إلى هضبة بوزريعه، فاستعظمت تلك الغابات، وما أودع الله فيها من أنواع النبات، من الضَّرْو والحَلحال والكاليتوس، وصابون العرايس والخَيَّاطة وعرق السّوس، والرّندِ والشّيح وحبِّ الرَّشاد[١٥]، وغير ذلك ممّا لا يحصيه عدّاد، مما يُطبخ مع الطّعام، أو هو من عقاقير الأسقام، وهنا ذكرت الطبيب الصيدلاني، عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري[١٦]، صاحبَ كتابِ «الرُّموز»، والتصانيف الحاوية للكنوز، فقد كان في صناعة الطّبّ ومنافع النبات ذا مهارة وعلم جمّ، شهد له بذلك العرب والعجم، فهلاً اقتدى به من انتسب في هذا الزمن إلى صناعة العقاقير، وهو في هذا العلم فقير.

ثمّ انحدرت من القصبة العلياء، إلى دار خْدَاوُج العمياء، امرأة اجتمع فيها الدّين والمال، والحسب والجمال، فمن حباه بمثلها الإله، فلا تربت يداه ولا رجلاه، ولها قصّةٌ يرويها الناس، ومرآتها مشهورة عند أهل النّحاس، ثم تواردت عليّ الأحوال، فأتبعت التَّجوال، حتى وقفت بـ «دار القاضي»، صاحب الحكم الماضي، من جرى حكمُه على كل إنسان، على نهج ﴿**إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ**﴾ [النحل: ٩٠]، وقد نُقشت الآية في أعلى الدار يقرأُها النّاس، لتأصيل هذا الأساس، ولم يكن يقضي في تلك الأحكام، إلا من أتقن الفقه و«تحفة الحكام»[١٧].

ثمّ أتبعت المسير في تلك الأمكنه، التي هي عندي أزمنه، فما حللت في مكان، إلا ولجت في زمان، مترددا بين «دار عزيزةَ»[١٨] و«الدّار الحمراء»[١٩]، وغيرِهما من قصور الأمراء.

فدعنيَ من غرناطةٍ وديارها
وشَنِّيلَ فالحسن انتهى للجزائر

وما تفضـــلُ الحمراءُ بيضاءَ غادةً

مقرّطــةً بالبـدر ذاتَ غـدائـر[٢٠]

وإنها لغادة ذاتُ جمال، إلا أنها بدت في أسمال[٢١]، فليتَ أهل العُمران الجديد، أصحاب الإسمنت والحديد، يبنون مثل هذه المباني، التي تدل على حسن ذَوق الباني، إلا أنني قد دريت، أنه لا ينفع شيئا ليت، وكلّما وقع بصري بمكان، أذكرني بما كان، ثم أخذَتني المسيره، إلى «باب الجزيره»، فوقفت عند «الجامع الكبير» جامعِ المرابطين، سادةِ السلاطين، بنَوه منذ ألف سنه، وهو من أيَاديهمُ الحسنه، التي ما زالت ترويها الألسنه، إلا ما كان من أمر المئذنه، فإنها من مآثر الزّياني صاحب الفخامه، وخبر بنائها مرقوم في الرخامه[٢٢]، وقد آنس وحشته «الجامع الجديد»[٢٣]، إذ لا طارف بقي ولا تليد، وكأنهما يتحادثان، بما رماهما به الحِدثان، بعد العصور الراقيه، والعصبة الواقيه، فهل ترى لهم من باقيه.

ثم جذبتني جواذب الأشواق، إذ وقفت في ذلك الرِّواق، ذي الأبواب والأعمده، التي كانت في «مسجد السيّده»[٢٤]، فنقلني عن زمني خاطرٌ ناقل، فدخلت المسجد من «باب البواقل»[٢٥]، فإذا أنا في مجلس صاحب السمعة المأثوره، والمكانة الرفيعة المشهوره، العلامة سعيد قدّوره، وهو جالس في وقاره وحِلمه، وقد سالت بين السواري سيول عِلمه، وقد أحاطت به من الطلاّب زُمَر، إحاطة الهالة بالقمر، يَغْرفُون من بحر علومه، ويَرقَون إلى ذُرى فهومِه، رجل أعزّه الله وأيّده، فكان «الباشا» يُقبّل يده، حتى إذا فارقني التَّذكار وانقضى، خرجت من المسجد قائلا: يا حسرتا على ما مضى، ثم هبَّت ريحٌ شرقيه، من الناحية البحريه، بذكرى الأساطيل العليّه، لدولة الجزائر، وقد علاها كل ليث زائر[٢٦]، على حالة لو رآها عمرو بن كلثوم، لاستحيى أن يقول:

ملأنَـا البَـرَّ حتـى ضـاق عنـا

ونحن البحـرُ نمـــلأه سَفينـا

ثم حضر ذكر الريّس الأبيّ، حَمِّيدُو بن عَليّ[٢٧]، الذي أعرض عن الخياطه[٢٨]، وأقبل على الفرقاطه[٢٩]، لعلوّ نفسه، وشدّة بأسه، فكانت له على الأعداء صوله، وأعزّ الله به الدوله، وكم كان هنا من رُبّان، سارت بأخباره الركبان.

قال محمد بن علي: قد علمتُ أن الأسجاع، لا تشبع من جاع، وأن الكلام لا يبني القلاع، وأنّ الجُرح لا يندمل، بالدمع المنهمل، ولكنّه شيء به



أشحَذ العزائم، وأوقظُ النائم، وهو قبسُ نورٍ لمن يَهيم، في ليل بَهيم، فإن سَلك الطريقَ فواهًا واهًا، وإن تنكّبَ عن المحجّة فآهًا آهًا، فعسى أن نبعث مجدنا من رمسِه، وأن نربط يومنا بأمسِه، ولكلِّ غارسٍ جنى غرسِه.

ـ تمَّت ـ

(١) وهو السور الذي كان يحيط بمدينة الجزائر وما زالت فيه بقية متصلة بدار السلطان من الناحية الشرقية في نهاية منحدر السوارج بالباب الجديد، وقد انهارت منه بعض الصخور بسبب الأمطار والإهمال قبل صدور هذا العدد بأيام فحرّك فينا مشاعر الأسف فكانت هذه المقامة.

(٢) وهو أحد أبواب مدينة الجزائر القديمة الخمسة التي هي أبواب للسور العظيم المحيط بها، وهي: باب الجزيرة، وباب الديوانة، وباب عزون، والباب الجديد، وباب الوادي.

(٣) مثل بضم المثلثة وفتحها أي انتصب قائما.

(٤) الدَّايْ: لفظ تركي بمعنى «الخال»، ومازالت بعض الأسر العريقة في الجزائر ينادون خالهم بلفظ «دِيدي»، وإنما سمَّى الجندُ التركيُّ أميرَهم بذلك إشارةً إلى أنّهم من أسرة واحدة.

(٥) المراد صباح ذلك اليوم الأسود الَّذي وطأت فيه أقدام الجيوش الفرنساويَّة مدينة الجزائر في أحداث أليمةٍ سنة (١٨٣٠م) ـ وربَّما أفردنا أحداث هذه الفاجعة بمقالٍ في غير هذا الرُّكن ـ، وقد مكث أهل الجزائر عبر أزمنة الاحتلال صابرين مجاهدين إلى أن قيَّض الله للغزاة الظَّلمة فِتْيَةَ نوفمبر الأحرار الأبطال، فعصفوا بالظُّلم والظَّالمين، وأخرجوهم عليهم الذِّلة والصَّغار، فخفقت أعلامُ الدَّولة الجزائريَّة مرَّة أخرى فوق مبانيها الحكوميَّة، وفي ساحاتها العموميَّة كما خفقت أوَّل مرَّة.

(٦) رمل المايه والموال من المقامات الموسيقية الأندلسيه.

(٧) هذه الأبيات من قصيدة: «يا قلبي خلِّ الحالْ يمشي على حالُو».

(٨) سُمِّي «البرَّاني»؛ لأنَّه خارج قصبة السلطان.

(٩) من أسماء مدينة الجزائر، ولها أسماء كثيرة.

(١٠) عين من عيون مدينة الجزائر تقع في أعالي المدينة.

(١١) وهو من أقدم مساجد الجزائر، بل قيل: هو أقدمها.

(١٢) من أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين البارزين.

(١٣) هي أبيات من القصيدة النونية، وهي قصيدة طويلة أقول في مطلعها:

حسنُ المظنَّة بالأيام خُسران
والسَّعيُ خلف سراب الدَّهر خِذلان

(١٤) هو طير من أجمل طيور الجزائر وأحسنها صوتا، وما زال من تقاليد أهل البلد الاعتناء بتربيته في بيوتهم.

(١٥) هذه أنواع من النبات منافعها معروفة عند العَشَّابين.

(١٦) هو الطبيب الصيدلاني والعشاب المشهور عبد الرزاق ابن محمد بن حمادوش ولد سنة ١١٠٧ هجرية، وكان معاصرا لجِلَّة من علماء الجزائر كابن عمار، وابن علي،

والحسين الورتلاني، وله علم بالفلك والطرق البحرية واتجاه الرياح وله كتاب مشهور بـ «رحلة ابن حمادوش»، ولم ينضبط عندي تاريخ وفاته إلا أنه من المعمِّرين.

(١٧) هي لابن عاصم الأندلسي، وهو كتاب في علم القضاء الإسلامي.

(١٨) هي عزيزة باي بنت الخزناجي ـ رحمها الله ـ، وقد ذكروا أن دارها المعروفة اليوم بـ «دار عزيزة» قد ملّكها إياها زوجها بمناسبة زواجها.

(١٩) مازال هذا القصر قائما إلى يومنا بجماله ورونق هندسته وهو قصر من قصور الداي حسين، وهو قريب من موقف الحافلات بساحة الشهداء قبالة «جامع علي بَتشيني الطَّلياني» رَحِمَهُ اللهُ، وأما تسميتها بـ «الدار الحمراء»، فلأنّها كانت مطلية باللون الأحمر، وقد بقي إلى زمننا هذا قصور كثيرة سلِمت من يد التَّدمير الفرنسي.

(٢٠) قائل هذه الأبيات هو الرحالة عبد الرحمن الجامعي.

(٢١) الثوب البالي.

(٢٢) وهي رخامة لاصقة في الجدار الذي عن يمين الآخذ في الصعود إلى المئذنة.

(٢٣) ويعرف أيضا بـ «الجامع الحنفي» وقد كان فيه جماعة من كبار علماء الجزائر، وآخر عالم ولي الخطابة في هذا المسجد هو شيخنا الفقيه اللّغوي المؤرّخ محمّد اليعقوبي الحسني الإدريسي رَحِمَهُ اللهُ الذي عمّر مائة عام وتوفي سنة ٢٠٠٦ م، وكان الشيخ المفتي أحمد حماني رَحِمَهُ اللهُ إذا نزلت نازلة لا يفتي إلا بعد مراجعة الشيخ اليعقوبي، ثم يطلب منه كتابة رأيه، حدثني بهذا الشيخ اليعقوبي رَحِمَهُ اللهُ، وممن تخرج من هذا المسجد من العلماء الشيخ العلامة المؤرخ عبد الرحمن الجيلالي وهو في هذه الأيّام حي ـ أمد الله عمره ـ وقد بلغ مائة عام.

(٢٤) أجمل مساجد مدينة الجزائر المحروسة، وسمي بـ «مسجد السيده» نسبة إلى بعض بنات ملوك صنهاجه، وقد جدد بناؤه في العهد التركي ثم هدم في السنوات الأولى من الاحتلال الفرنسي كما جرى ذلك على أكثر مساجد المدينة.

(٢٥) هذه تسمية لباب من أبواب «الجامع الكبير».

(٢٦) زائر: اسم فاعل من الزئير، وهو صوت الأسد تقول: زأر يزأر فهو زائر.

(٢٧) اشتهر باسم «الرَّيس حميدو» من أب وأم جزائريين، ولد سنة ١٧٧٠م، وتوفي سنة ١٨١٥م في معركة بحرية في مواجهة أسطول أمريكي، وقد حُملت رايته إلى أمريكا، وهي محفوظة في بعض متاحفها، وله أخبار كثيرة وقد اعتنى بدراسة حياته وذكر أخباره وشجاعته كثير من الباحثين الجزائريين وغيرهم.

(٢٨) ذلك أنّه كان في أوّل أمره يتعلّم الخياطة بأمر والده، ثمَّ مالت نفسه إلى البحر وأهواله فكان منه ما كان.

(٢٩) فَرْقاطَه ـ وهي في النطق بالقاف المعقودة وتسمع مثل الجيم المصريّة ـ: سفينة حربيّة، وما زال استعمال هذه التّسمية جاريا عندنا.



حقيقة الغزو الفرنسي للجزائر وبعض آثاره

عمر الحاج مسعود

دامت الحروب الصليبية قرنين إلا ثماني سنوات، يوقد نارها ويشعل فتيلها ويدعو إليها البابوات ويحرضون ملوك أوربا وشعوبها على قتال المسلمين، وتخليص الأرض المقدسة من أيديهم ويباركون المجازر التي يقوم بها الإفرنج، ويحتفلون ـ بكل قوة ونشاط ـ بسقوط أرض الإسلام في أيديهم.

جاء في تاريخ البابوات موقف البابا كاليستيوس الثالث الذي ارتقى كرسي البابوية وهو في سن الثمانين، ومع ذلك لم يكن له همٌّ إلا إثارة النصارى على المسلمين، وفي سنة ١٤٥٦م بنى أسطولا بحريا خمسا وعشرين سفينة حربية ودعا ملوك النصارى للالتحاق به وشن الغارات على بلاد الإسلام[1].

لا يهدأ لهؤلاء بال، ولا يحلو لهم حال إلا إذا حاربوا الإسلام وفتكوا بأهله كلما أطفئت لهم نار أوقدوا أختها، وكلما فشلت لهم خطة هيئوا مثليها.

ومن نافلة القول: إن العدوان على الجزائر كان حلقة من حلقات تلك الحروب، فهدف فرنسا كان ـ أولا وقبل كل شيء ـ محاربة الإسلام وأهله وإدخالهم في النصرانية لتضمن أمنها واستقرارها، وتثبت بقاءها وسيطرتها؛ لأن المسلمين ظلوا يطاردونها، ويحاصرونها ويضايقون تجارها.

لقد جاء الاستعمار بحده وحديده وأقبل بخيله ورجله، حاملا العقائد النصرانية والتقاليد الأوربية، محاولا زعزعة عقيدة الجزائريين وأخلاقهم، جاهدا في طمس عروبتهم وأصالتهم، ساعيا في تقويض شخصيتهم ووحدتهم ولم يزل هذا دأبه وسعيه منذ وطئت قدمه هذا البلد الطيب وصدق الله إذ يقول: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ

﴿حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠]، ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [البقرة: ٢١٧].

يقول محمد البشير الإبراهيمي رحمه الله: «جاء الاستعمار الدنس الجزائر يحمل السيف والصليب، ذاك للتمكن وهذا للتمكين»[٢]، وقال: «احتلال فرنسا للجزائر كان حلقة من الصليبية الأولى ولا غرابة في ذلك...»[٣].

والدليل على ما ذكرنا:

١ ـ بناء الكنائس، وتخريب المساجد وهدمها وتحويل بعضها كنائس، لقد شيَّدت فرنسا كنيسة كبيرة تطل على البحر المعروفة باسم «السيدة الإفريقية» وحولت مسجد كتشاوة كنيسة وبارك البابا هذا العمل، قال الإبراهيمي: «حولت بعض المساجد الكبرى كنائس وعمرتها برجال الكنيسة المسيحيين... وناهيك بمسجد كتشاوة العظيم الذي صيرته كاتدرائية عظمى في العاصمة»[٤].

٢ ـ تشجيع نابليون الثالث النشاط النصراني وتعيينُه الكردينال لافيجري رئيسا للنصارى في الجزائر، فنشط وسط الفقراء والأطفال والنساء، وبلغت جهوده أصقاع الصحراء.

وفي برنامجه التنصيري: «علينا أن نجعل من الأرض الجزائرية مهدا لدولة عظيمة مسيحية أعني بذلك فرنسا أخرى يسودها الإنجيل دينا وعقيدة»[٥].

٣ ـ تكوين لافيجري فرقة الآباء والأخوات البيض (Péres blancs) لتنصير الجزائريين، وكان نشاطها يرتكز على التعليم والتطبيب والخدمات الاجتماعية.

٤ ـ تخريب المدارس العربية الإسلامية.

٥ ـ استقدام عدد كبير من الرهبان والمعلمين والأطباء، فالراهب ينشر النصرانية ويشكك المسلمين في عقيدتهم، والمعلم يفسد العقول ويبعد الأمة عن لغتها ويشوه التاريخ ويزهِّد في الدين، والطبيب يداوي علة بعلل، ويقتل جرثومة بجراثيم[٦].

٦ ـ محاربة اللغة العربية؛ لأنها لغة القرآن ولسان الأمة، يقول مصطفى صادق الرافعي: «ولغة الأمة هي الهدف الأول للمستعمرين، فلن يتحول الشعب أول ما يتحول إلا من لغته...»[٧].

وقال الحاكم الفرنسي للجزائر في الاحتفال بمرور مائة سنة على الاحتلال: «إننا لن ننتصر على الجزائريين ما داموا يقرؤون القرآن، ويتكلمون بالعربية، فيجب أن نزيل القرآن العربي من وجودهم، ونقتلع اللسان العربي من ألسنتهم»[٨].



يقولون هذا؛ لأن اللغة كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «من أعظم شعائر الأمم التي بها يتميزون»[٩].

٧ ـ محاربة الوحدة الإسلامية التي تجمع بين العرب والبربر، فزرع الاستعمار الخلاف والشقاق بينهم وشحن أدمغة البربر بأنهم هم الأصليون في هذه الأرض، وأنَّ العرب ظلموهم وغصبوهم أرضهم[١٠].

هذه بعض الأدلّة التي تجعلنا موقنين بأن احتلال الجزائر ـ كما يقول الإبراهيمي ـ: «إنما هو قرن من الصليبية نجم، لا جيش من الفرنسيين هجم»[١١].

ولا أدل على هذا من تصريح قادته واعترافهم ـ والاعتراف سيد الأدلة ـ، قال خطيب في الاحتفال بمرور مائة سنة من احتلال الجزائر: «ليس الداعي الأكبر لهذه المهرجانات هو الاحتفال بمرور مائة سنة على احتلالنا للجزائر... ولكن الباعث الأعظم على هذا هو أننا دعوناكم لتمشوا معنا في جنازة الإسلام بالجزائر»[١٢].

ثم إن الله جل وعلا سخَّر رجالا من أبناء هذه الأمة ردُّوا عدوانه، وكشفوا ضلاله، وزيفوا بهرجه وعلى رأسهم «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين»، فكانوا يواجهون مخططاته كل حين، ويجاهدونه صادقين، فخرج من الجزائر ذليلا حقيرا، وطرد منها خاسئا حسيرا؛ لكنه خلَّف وراءه ركاما من العقائد الباطلة والأخلاق القبيحة والعادات الفاسدة المخالفة للدين والخرافات المضحكة التي لا يؤمن بها إلا الأغبياء والمجانين، قال الإبراهيمي في أول صلاة جمعة بعد الاستقلال بمسجد كتشاوة التي أقيمت في اليوم الخامس من شهر جمادى الثانية سنة ١٣٨٢ الموافق لـ ٢/ ١١/ ١٩٦٢م، وهي خطبة مشهودة حضرها أركان الدولة وغيرهم: «يا معشر الجزائريين! إنَّ الاستعمار كالشَّيطان الذي قال فيه نبينا ﷺ: «إنَّ الشَّيطان قد يئس أن يُعبدَ في أرضِكُم هَذِه، ولكنَّه رضيَ أن يُطاعَ فيما دُون ذلكَ»، فهو قد خرج من أرضكم هذه، ولكنَّه لم يخرج من مصالح أرضكم، ولم يخرج من ألسنتكم، ولم يخرج من قلُوب بعضكم، فلا تعاملوه إلا فيما اضطررتم إليه، وما أبيح للضَّرورة يقدَّرُ بقدرها»[١٣].

وفي هذه المقالة بيان وتوضيح لبعض ما خلَّفه الغزو الصَّليبي، أذكره نصحا للمسلمين وتنبيها للغافلين وحجة على المعاندين، وبيانا للأصل العظيم من أصول هذا الدين، وهو ترك التشبه

بالكفار والمشركين، قال الله عز وجل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨﴾ [الجاثية: ٤]، وأهواؤهم ما هم عليه من الهوى والابتداع والباطل، وقال النبيُّ ﷺ: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُم»[١٤]، واتفق أهل العلم ـ في الجملة ـ على أنه لا يجوز للمسلم أن يتشبه بالكافرين في لباسهم وهيئتهم وعبادتهم وأخلاقهم، مع وقوع الخلاف في بعض المسائل[١٥].

جاء في الشروط التي وضعها عمر رضي الله عنه لأهل الذمة واتفق عليها الصحابة والأئمة بعدهم ـ في الجملة ـ: «وأن نُوقِّر المسلمين...، ولا نتشبه بهم في شيء من لباسهم...، ولا نتكلم بكلامهم...، ولا ننقش خواتيمنا بالعربية...»[١٦].

وهذا التمييز يقتضي ترك التشبه بأعداء الله من اليهود والنصارى والمشركين.

*** أمثلة لما خلَّفه الغزو الصَّليبي:**

١ ـ اللُّغة:

حارب الاستعمار اللغة العربية وحاصر تعليمها وشجع اللهجة العامية ونشر اللغة الأجنبية، فغابت لغة القرآن، إلا قليلا.

عمل الغزو الصليبي عمله، وفرض شعاره، وجرت على الألسنة لغته وتعلق الناس بها وبأهلها، وصارت بعض الأشياء لا تعرف إلا بها، مثل: «سربيتة» منشفة، «لاري» محطة، «فرملي» ممرض، «شورت» تبان، «طابلة» طاولة، «ليكول» مدرسة.

فصارت اللغة الفرنسية ـ ولا تزال ـ هي الغالبة في المستشفيات والمصانع والمحلات، واللوحات والشعارات والإعلانات، وإنك لتمر بشارع ـ وهذا بعد مرور أكثر من أربعة عقود على الاستقلال ـ فترى أغلب ـ وربما كل ـ لوحات محلاته مرقومة بالفرنسية، وربّما كتبت تحتها العربية.

وهكذا تعظم الأشياء ـ عند الكثير من المنهزمين ـ إذا سميت باللغة الأجنبية.

٢ ـ التَّأريخ:

لكل أمة تاريخ ترتبط وتعتز به، ويعتبر شعارا لها، وجزء من مقوماتها وقد اتفق أمير المؤمنين عمر بن الخطاب مع الصحابة رضي الله عنهم على أن يكون التاريخ الإسلامي من عام الهجرة النبوية دون أن يحدثوا احتفالا أو عيدا، فقال لهم بعد المشاورة: «الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرِّخوا بها»، وذلك سنة سبع عشرة[١٧].

وهذا توفيقٌ من الله العزيز الوهَّاب للمُحَدَّث المُلْهَم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فالشهر الهجري مرتبط بالهلال الذي تعرف به كثير من الأحكام



الشرعيَّة مثل الصِّيام والحجِّ والعيد وعدَّة الطَّلاق وغير ذلك، قال الله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّ ۗ﴾ [البقرة: ١٨٩].

إنَّ معرفة هذا التاريخ والاعتماد عليه اقتداء بعمل السلف الصالح، واعتزاز بثوابت الأمة، وقد حارب الاحتلال الصليبي هذا وفرض تأريخه الميلادي الدال على عقائد ومعان، فصار أكثر الجزائريين إلى اليوم لا يحسبون بالتاريخ الهجري، ولا يعتمدونه، وهذا انهزام وهوان، قال الشيخ أبو يعلى الزواوي رحمه الله: «...ومن الجهل والغفلة، بل من العار والشنار أن يؤرخ عربي مسلم بتاريخ جوان وجويليت وحزيران وأغسطس وبشنس وهلم جرا، وبالميلاد المنسوخ بالهجرة، فيترك الناسخ ويجعل الهجرة مهجورة والعياذ بالله...»[18].

٣ ـ الاحتفال بعيد ميلاد المسيح عليه السلام:

هذا العيد ابتدعه النصارى وأحدثوا فيه أنواعا من الشرك والبدع، وشربوا فيه الخمر وأكلوا الخنزير، وجعلوه جزءًا من عقيدتهم وشعيرة من شعائرهم، وهذا من أهوائهم وضلالاتهم التي نهينا عن اتباعها، قال عز وجل: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ [الجاثية: ١٨].

لكن، وبكلِّ أسف تشبَّه المسلمون بهؤلاء النصارى فاحتفلوا بعيدهم وفرحوا به وجعلوه مناسبة للراحة وباعوا واشتروا وأهدوا فيه الدجاج والديك الرومي والزهور والحلويات وكعكة الميلاد، وكتبوا على الرسائل والبطاقات: «عيد سعيد».

كما صاروا يحتفلون بأيام ميلادهم وميلاد أبنائهم، ومنهم من لم يكتف بذلك، بل أضافوا إليه الاختلاط والفجور، وشرب الخمور، تقليدا لأعداء الله، والله المستعان.

٤ ـ اللِّباس والزِّينة:

إن العدو المتسلط على بلاد المسلمين يستعمل جميع الوسائل ويسلك كل الطرق لتغيير الأسماء وتبديل الأزياء، ولهذا لما استولى النَّصارى على الأندلس أجبروا المسلمين على تغيير أسمائهم ولباسهم، ومنعوهم حتى من دخول الحمامات؛ وكذلك فعل مصطفى كمال أتاتورك بمسلمي تركيا وأجبرهم على لبس البُرْنيطة.

* من الأمور التي خلَّفها الغزو الصليبي في هذا الباب:

ـ حلق اللحية:

اللحية خصلة رجولة، وعلامة فحولة، وقد جاءت النصوص النبوية آمرة بإعفائها وتوفيرها حفاظا على الفطرة، واتباعا لهدي سيد المرسلين ومخالفة لعمل المشركين، قال ﷺ: «**خَالِفُوا الْمُشْرِكِينَ، وَفِّرُوا اللِّحَى، وَأَحْفُوا الشَّوَارِبَ**»[١٩]، وقال: «**أَعْفُوا اللِّحَى، وَخُذُوا الشَّوَارِبَ، وَغَيِّرُوا شَيْبَكُمْ وَلَا تَشَبَّهُوا بِالْيَهُودِ وَالنَّصَارَى**»[٢٠].

إن الكفار يحرصون على حلقها ابتغاء الحسن والبهاء، ويعتنون باستئصالها طلبا للجمال والنقاء، وقلدهم في هذا الكثير من المسلمين جهلا واغترارا حتى وصل الأمر ببعضهم إلى الاستهزاء بها، ومحاربة أهلها ومعاداتهم، تقليدا للكفار وإرضاء للفجار.

ـ لبس البنطلون:

كان المسلمون يلبسون السراويلات[٢١] العريضة الفضفاضة، أما البنطلون ـ وهو اسم للسراويل الإفرنجية ـ فقد اشتهر به الكفار من النصارى وغيرهم، وعنهم أخذه المسلمون حتى صار مألوفا مع ما فيه ـ وبخاصة إذا كان ضيقا ـ من المنافاة للحياء والحشمة حيث يحدد العورة ويشخص السوأة.

قال الألباني رحمه الله: «البنطلون فيه مصيبتان: المصيبة الأولى: هي أن لابسه يتشبه بالكفار، والمسلمون يلبسون السراويل الواسعة الفضفاضة...، فما عرف المسلمون البنطلون إلا حينما استعمروا...؛ المصيبة الثانية: هي أن البنطلون يحجم العورة»[٢٢].

ـ لبس البرنيطة:

غطاء الرأس عند المسلمين هو العمامة أو الطاقية أو القلنسوة ونحو ذلك، أما البرنيطة «البريطة» فهي غطاء الرأس عند الإفرنج، جمعها برانيط[٢٣].

وهي من لباس الكفار وزيهم الخاص، وقد ألزم أتاتورك المسلمين الأتراك بلبسها حتى صارت مألوفة[٢٤].

وقلد بعض المسلمين ـ ولا يزالون ـ الكفار في هذا اللباس وافتخروا به، وهجروا ما شرع لهم من الطاقية ونحوها.

قال أحمد شاكر رحمه الله منكرا هذا اللباس:



«وأظهر مظهر يريدون أن يضربوه على المسلمين هو غطاء الرأس الذي يسمونه «القبعة» «البرنيطة» وتعللوا لها بالأعاليل والأباطيل...»[٢٥].

- لبس الدّبلة (L'alliance):

وهي خاتم من ذهب أو فضّة من غير فص يلبس علامة على الخطوبة والزواج، وهي بدعة محدثة للرجال والنساء؛ لأنها من عادات النَّصارى وشعاراتهم في الزواج.

ويرجع ذلك إلى عادة قديمة لهم عندما كان يضع العروس الخاتم على رأس إبهام العروس اليسرى، ويقول: باسم الأب، فعلى رأس السبابة ويقول: باسم الابن، فعلى رأس الوسطى يقول: باسم روح القدس، وأخيرا يضعه في البنصر حيث يستقر، ويقول: آمين[٢٦].

وقد يعتقد أن لبسها سبب لدوام المحبة والمودة بين الزوجين، وهذا من التولة وهي نوع من الشرك، قال النبي ﷺ: «**إِنَّ الرُّقَى وَالتَّمَائِمَ وَالتِّوَلَةَ شِرْكٌ**»[٢٧].

والتِّولة ما يحبِّبُ المرأةَ إلى زوجِها من السحر وغيره[٢٨].

فيكون في الدبلة محظوران:

الأول: تشبه بأعداء الله النصارى، الثاني: اعتقادُ سبَبٍ للمحبَّة والمودة لم يجعله الله سببًا لا قدرا ولا شرعا[٢٩].

وقد تسربت هذه العادة السيئة إلى بيوت المسلمين ولم ينج منها إلا من رحم الله رب العالمين.

وآثار الغزو الصليبي لبلاد المسلمين ـ ومنها الجزائر ـ كثيرة جدا، وقد اكتفيت في هذا البحث بالتمثيل؛ والله الهادي إلى سواء السبيل.

وصلى الله وسلم على عبده ورسوله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

---

(١) انظر: «التعصب الأوربي» لشكيب أرسلان (٣/ ٢١٧).

(٢) «الآثار» (٣/ ٨٠).

(٣) «الآثار» (٣/ ١٦٣).

(٤) «الآثار» (٣/ ١٦٣).

(٥) انظر: كتاب «فرنسا والأطروحة البربرية في الجزائر» أحمد بن نعمان (ص٩٢).

(٦) انظر: «آثار الإبراهيمي» (٣/ ٩٦ ـ ٩٩).

(٧) «وحي القلم» (٣/ ٣٣).

(٨) انظر: «قوى الشر المتحالفة» لمحمد الدهان (ص٢٣).

(٩) «اقتضاء الصراط المستقيم» (٢٠٣).

(١٠) انظر: «الجزائر وقبائل البربر» لشكيب أرسلان، مع كتاب «حاضر العالم الإسلامي» (٢/ ١٨٠).

(١١) «الآثار» (٣/ ١٦٤).

(١٢) «آثار الإبراهيمي» (٥/ ١٤٦).

(١٣) «الآثار» (٥/ ٣٠٧).

(١٤) أخرجه أحمد (٥١١٥)، وصححه الألباني في «الإرواء» (١٢٦٩).

(١٥) «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية (ص١٢١، ١٣٣، ١٤١)، «التعليق على المسند» لأحمد شاكر (١٠/ ١٩).

(١٦) أخرجه البيهقي (٩/ ٢٠٢)، وانظر: «اقتضاء الصراط المستقيم» لابن تيمية (ص١٢١)، و«أحكام أهل الذمة» لابن القيم (٢/ ٦٥٧).

(١٧) انظر: «فتح الباري» لابن حجر (٧/ ٢٦٨).

(١٨) «الثمرة الأولى لجمعية الطلبة الجزائريين الزيتونيين» (٤١ ـ ٤٢)، وانظر: «فتاوى مهمة» للشيخ الفوزان، «المنتقى» (١/ ٢٥٧).

(١٩) أخرجه البخاري (٥٨٩٢) ومسلم (٢٥٩).

(٢٠) أخرجه أحمد (٨٦٥٧) وإسناده حسن، انظر: «جلباب المرأة المسلمة» للألباني (ص١٨٩).

(٢١) السراويلات: جمع مفرده سراويل يذكر ويؤنث. «الصحاح» للجوهري (٥/ ١٧٢٩).

(٢٢) انظر: «القول المبين» لمشهور حسن سلمان (ص٢٠).

(٢٣) «المعجم الوسيط» (١/ ٥٣).

(٢٤) «فتاوى محمد بن إبراهيم» (٤/ ٧٦)، وانظر: «لباس الرجل» لناصر الغامدي (١/ ٢٨٢).

(٢٥) «التعليق على المسند» (١٠/ ١٩).

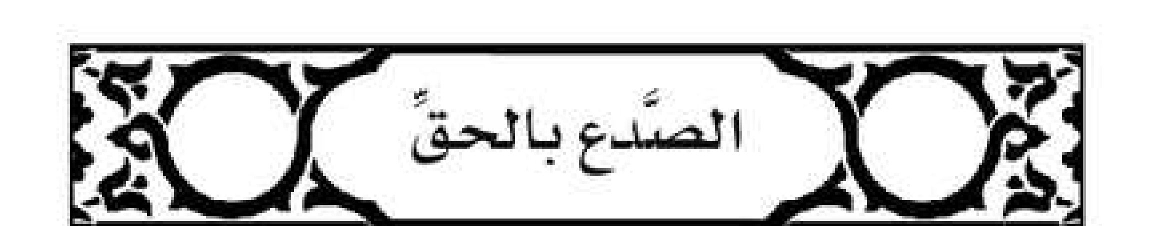
(٢٦) «آداب الزفاف» للألباني (ص٢١٣).

(٢٧) أخرجه أحمد (٣٦١٥) وأبو داود (٣٣٨٣)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (٣٣١).

(٢٨) «النهاية في غريب الحديث» لابن الأثير (١/ ٢٠٠).

(٢٩) «فتاوى محمد بن إبراهيم» (٤/ ٨٩ ـ ٩١)، «فتاوى اللجنة الدائمة» (١٩/ ١٤٧)، «القول المفيد» للشيخ ابن عثيمين (١/ ١٨١).





الصَّدع بالحقِّ

* قال الحافظ الذَّهبي رَحِمَهُ اللهُ:

«الصَّدع بالحقِّ عظيمٌ، يحتاج إلى قوَّة وإخلاصٍ؛ فالمخلص بلا قوَّة يعجز عن القيام به، والقويُّ بلا إخلاص يُخْذَل، فمن قام بهما كاملًا، فهو صِدِّيق، ومن ضعف، فلا أقلَّ من التَّألُّم والإنكار بالقلب، ليس وراء ذلك إيمانٌ، فلا قوَّة إلَّا بالله».

[«سير أعلام النُّبلاء» (١١/ ١٣٤)]

العمل بالعلم

* قال الإمام سحنون المالكي رَحِمَهُ اللهُ:

«مَن لم يعمَلْ بعلمِه لم ينفعْهُ العِلمُ، بل يضرُّه؛ وإنَّما العِلمُ نُورٌ يضَعُه اللهُ في القُلوب، فإذا عَمِل به، نوَّرَ اللهُ قلبَهُ؛ وإنْ لم يَعمَلْ به، وأحبَّ الدُّنيا، أعْمَى حبُّ الدُّنيا قَلْبَه، ولم يُنَوِّرْه العِلمُ!».

[«ترتيب المدارك وتقريب المسالك» للقاضي عياض]



حلاوة العبادة

* قال الإمام أحمد بن حرب رَحِمَهُ اللهُ:

«عبدتُ اللهَ خمسين سنةً، فما وجدتُ حلاوةَ العبادة حتَّى تركتُ ثلاثةَ أشيَاءٍ:

ـ تركتُ رضَى النَّاس حتَّى قدرتُ أن أتكلَّم بالحقِّ.

ـ وتركتُ صُحبة الفاسقين حتَّى وجدتُ صحبة الصَّالحين.

ـ وتركت حلاوة الدُّنيا حتَّى وجدتُ حلاوة الآخرة».

[«سير أعلام النُّبلاء» (١١/ ٣٤)]

نصيحة

قال الإمام ابن حزم رَحِمَهُ اللهُ:

«إيَّاك وموافقةَ الجليسِ السَّيِّءِ، ومُساعدَةَ أهلِ زَمانِكَ فِيما يضُرُّك في أُخْراكَ أو في دُنيَاكَ وإنْ قَلَّ، فإنَّك لا تَستفِيدُ بذلكَ إلاَّ النَّدامةَ حيثُ لا يَنفَعُكَ النَّدمُ، ولنْ يحمدَك مَنْ سَاعَدتَه، بَل يُشمِتُ بكَ؛ وأَقَلُّ ما في ذلكَ وهُوَ المضمُونُ أنَّه لا يُبَالِي بسُوء عَاقبَتِك، وَفسَادِ مَغبَّتكَ».

[«الأخلاق والسير» (ص:١٤٩)]